جامعة الأزهر
كلية أصول الدين – القاهرة
قسم العقيدة والفلسفة

القرآن الكريم والفلسفة

دكتور
جميل إبراهيم السيد تعيلب
أستاذ مساعد العقيدة والفلسفة
جامعة الأزهر

٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله. اللهم صل عليه وعلى آله وصحبة وسلم أجمعين. **وبعد**:

من أجل نعم الله تعالى على الإنسان، أن بعث إليه رسلاً، وأنزل إليه كتباً، ووهبه عقلاً يفكر به، ويميز به بين الصواب والخطأ. وأصح الكتب القرآن الكريم. وثمرة العقل الفكر، الذى هو مرادف للفلسفة. فهاتان نعمتان عظيمتان، من الله على الإنسان، القرآن الكريم، والفلسفة.

والقرآن الكريم، كتاب الله تعالى الخالد، قد ذكر أسس الفلسفة الصحيحة، وحل كثير من المشكلات، التي حارت فيها الفلسفات المختلفة، قديماً وحديثاً.

ولأجل التنويه بشيء من فضائل هاتين النعمتين، كانت هذه الكلمات، التى تبين بعض فضائلهما، والعلاقة بينهما.

وقد جعلت هذا البحث المتواضع، تحت عنوان "القرآن الكريم والفلسفة".

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وخمسة مباحث وخاتمه.

تحدثت فى المقدمة عن معنى مفردات البحث، فذكرت معنى القرآن الكريم والمعانى المختلفة للفظ الفلسفة.

المبحث الأول: ذكرت فيه الفكر الفلسفي قبل الإسلام

والمبحث الثاني: ذكرت فيه موقف القرآن الكريم من إعمال العقل.

والمبحث الثالث: ويقع تحت عنوان: القرآن الكريم يدعو إلة التفلسف. بينت فيه أن القرأن نبه العقول والقلوب إلى الفلسفة الصحيحة. مع عرض لبعض الموضوعات الدال على ذلك.

وفى **المبحث الرابع**: تحدثت عن حكم الشرع فى النظر فى الفلسفة والمنطق. وهل هناك تعارض بين القرآن الكريم والفلسفة؟. وطريق الفلسفة وطريق الدين.

وتحدثت فى المبحث الخامس: عن القرآن الكريم وقضايا الفلسفة. وهى الموضوعات الرئيسة للفلسفة وهى: الفلسفة الإلهية. الفلسفة الطبيعية. والفلسفة الأخلاقية. وبينت أن إيراد القرآن الكريم لهذه القضايا أوفى وأعمق من البحوث الفلسفية.

وبعد:

فإني أتوجه بخالص شكري، وعظيم إمتناني للمربي الفاضل: أستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور: محيي الدين أحمد الصافي. والذي كان لتوجيهاته المباركة، أكبر الأثر في إخراج هذا البحث. أسأل الله تعالى، أن يمتع بالصحة والعافية.

وإن كنت قد وفقت فلله تعالى وحده الفضل والمنة. وإن كانت الأخرى فمن نفسي. واستغفر الله. والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

دكتور/جميل إبراهيم تعيلب

تمهيد

معنى القرآن الكريم: القرآن الكريم: كلام الله تعالى، المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته[1] المنقول إلينا تواتراً.

أخبر تعالى عنه أنه : {كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[2] نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ : {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[3] أنزل الله تعالى كتاب هداية ورحمة للناس أجمعين، على رسول هداية ورحمة للناس أجمعين. {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ}[4] {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ}[5]

والقرآن الكريم هو المعجزة الحسية والمعنوية الباقية إلى يوم القيامة وقد تكفل الله تعالى بحفظه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}[6] تحدى العرب أن يأتو بمثله فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وإذا كان العرب وهم أهل فصاحة وبلاغة وبيان عجزوا، فغيرهم أعجز من باب أولى، والتحدى هذا باق إلى يوم القيامة للإنس والجن {قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا

---

١) مباحث فى علوم القرآن. مناع القطان، صـ ١٦. مكتبة وهبة القاهرة. الطبعة الحادية عشر.

٢) سورة هود. من الآية: ١.

٣) سورة الشعراء. الآيات: ١٩٢-١٩٥.

٤) سورة الأنبياء. الآية: ١٠٧.

٥) سورة سبأ. من الآية: ٢٨.

٦) سورة الحجر. الآية ٩.

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[1] {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}[2] {فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}[3].

والقرآن الكريم معجز بكونه فى الدرجة العالية من الفصاحة والبلاغة والبيان، ولوفائه بحاجات الناس، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة. لا يستطيع أحد مهما أوتى أن يأتى بشئ من نظمه أو تراكيبه، أو استدلالاته التى تقنع العقول والقلوب.

وكما نقل عن سيدنا على ﷺ قوله فى القرآن الكريم: "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}[4] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط المستقيم"[5].

---

١) سورة الإسراء. الآية ٨٨.

٢) سورة هود. من الآية ١٣.

٣) سورة البقرة. من الآية ٢٣.

٤) سورة الجن الآيتان ١، ٢

٥) مقدمة تفسير ابن كثير، الإمام إسماعيل بن كثير. تحقيق: سامى محمد على سلامى، جـ١، صـ ٢١، ط. دار طيبة للنشر. الطبعة الثانية. سنة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

معنى الفلسفة: للفلسفة تعريفات متعددة، باعتبارات مختلفة منها:

١- التعريف الاشتقاقى: حب الحكمة، فالكلمة مكونة من مقطعين "فيلو" بمعنى حب أو محبة وسوفيا" بمعنى الحكمة. فالفلسفة حب الحكمة، والفيلسوف محب الحكمة، أما الحكيم فهو الإله، فقد نسب إلى فيثاغورث – ٥٨٢ – ٤٩٧ ق.م – قوله: لست حكيماً، فإن الحكمة لا تضاف لغير الإله، وما أنا إلا فيلسوف[1].

٢- التعريف الذى يشمل على فعلها، وفعل الفيلسوف، وغايته.

١) التشبه بأفعال الله تعالى بقدر طاقة الإنسان. وأرادوا بذلك، أن يكون الإنسان كامل الفضيلة.

٢) العناية بالموت. والمراد به إماتة الشهوات، لأنه السبيل إلى الفضيلة؛ لأن الانشغال باللذات الحسية سبيل لترك الاستعمال العقلى، وترك الشهوات الحسية سبيل لاستعمال العقل.

٣- تعريف الفلسفة من جهة أصلها، وغايتها، وحقيقتها، وعلاقتها بالعلوم المختلفة. هى صناعة الصناعات، وحكمة الحكم.

٤- تعريفها من جهة نظر الإنسان لنفسه أو للإنسانية. معرفة الإنسان لنفسه. وبمعرفة الإنسان لنفسه يعرف الكل؛ لأن الإنسان هو العالم الأصغر.

٥- التعريف الذى يبين عين الفلسفة وحقيقتها. علم الأشياء الأبدية الكلية، إنياتها، ومائياتها وعللها بقدر طاقة الإنسان[2].

---

١) تمهيد للفلسفة: د. محمود حمدى زقزوق. صـ ٣٧. ط. دار المعارف. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٩٢م.

٢) راجع: رسالة حدود الأشياء ورسومها. الكندى. ضمن رسائل الكندى الفلسفية. تحقيق: د. محمد عبد.الهادى أبو ريدة. صـ ١٢١، ١٢٢. ط. دار الفكر العربى – الطبعة الثانية.

وهناك تعريف آخر ذكره أرسطو للفلسفة، وهو: العلم بالموجود بما هو موجود.

وتعريف للرواقيين: وهو معرفة الأمور الإلهية والإنسانية.

وفى المعاجم الحديثة: الفلسفة دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً. والفيلسوف: العالم الباحث فى فروع الفلسفة.[٢]

وإذا نظرنا إلى هذه المعانى نجدها متوافقة مع المعانى التى وردت فى اللغة العربية، وفى الإسلام فالمعنى اللغوى وهو محبة الحكمة، يحتاج إلى كثير من التفصيل، باعتبار أنه الأشهر، والأعم، والتعريفات الأخرى مندرجة تحته. ولنعلم هل المعنى الفلسفى للفظتين يتوائم مع ما فى القرآن الكريم؟.

معنى الحكمة: الحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. والحكيم: العالم وصاحب الحكمة. والحكم: العلم والفقه. قال تعالى: {وآتيناه الحكم صبياً}[٣] أى علماً وفقهاً. والإحكام فى هذا المعنى: الإحراز. والحاكم: منفذ الحكم، والجمع حكام، وفى الحديث: {وبك حاكمت}[٤] أى رفعت الحكم إليك، ولا حكم إلا لك. والحكمة: العدل. ورجل حكيم: عدل. والحكيم: المتقن للأمور. والله تعالى الحكيم. وهو

١) تحقيق: أبو ريدة على رسائل الكندى الفلسفية. هامش صـ ١٢٣

٢) المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. جـ٢، صـ ٢٦٥. تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٣) سورة مريم. الآية ١٢.

٤) رواه الإمام البخارى فى صحيحة بسنده عن ابن عباس. حديث رقم ٧٤٤٢ كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.

أحكم الحاكمين، له الحكم. والحكم: الله تعالى. ومن صفاته تعالى الحكم، والحكيم، والحاكم. ومعانيها متقاربة[١].

معنى المحبة: الحب: نقيض البغض. والحب: الوداد، والمحبة، وكذلك الحب بالكسر، وأحبه فهو محب، وهو محبوب، والمحبة أيضاً اسم للحب، والحباب بالكسر، المحابة، والمودة والحب. وتحبب إليه: تودد، والحب: المحبوب. وكان أسامة بن زيد، حِب رسول الله ﷺ[٢].

١) راجع: لسان العرب. جمال الدين بن منظور. مادة حكم. جـ١٢، صـ١٢٠. ط. دار صادر. الطبعة الأولى.

٢) لسان العرب. جـ١ صـ٢٨٩.

المبحث الأول

الفكر الفلسفى قبل الإسلام

يمكننا أن نأخذ طوائف وأفكار الفلاسفة، من فكر الإمام الغزالى، فهو الخبير بآرائهم وأفكارهم. يستعرض الإمام الغزالى الفكر الفلسفى، والقضايا الفلسفية، التى كانت موجودة قبل الإسلام، وتأثر بها الفلاسفة المسلمون، ويبين ما هو حق منها، وما هو باطل، بميزان الإسلام.

وذكر أولاً: أنه لا بد للناظر، ولناقد أى فكر أو علم، أن يساوى أهله فيه، بل يتفوق عليهم، وأنه هناك فرق بين تناول القدماء، وتناول المحدثين للقضايا الفلسفية،" وإن كان بين القدماء منهم والمحدثين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه."[1]

أصناف الفلاسفة وميزان أفكارهم

الأول: الدهريون. وهم زنادقة، جحدوا وجود الله تعالى الموجد للعالم، "وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدًا"[2]، وهؤلاء أخبر الله تعالى عنهم فى قوله تعالى {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[3]

---

١) المنقذ من الضلال. الإمام أبو حامد الغزالى. تحقيق: د. جميل صليبا، وكامل عياد. ط. دار الأندلس، بيروت.

٢) السابق، ص ٩٦

٣) سورة الجاثية. الآية: ٢٤

الثانى: الطبيعيون. وهم يبحثون فى العلوم الطبيعية، والكشف عن أسرارها، وهم ببحثهم هذا اعترفوا بإله، حكيم، صانع، ومدبر للعالم، إلا أنهم ثقة فى بحوثهم، أنكروا حقائق الآخرة، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج، تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان، تابع لمزاجه أيضًا، وأنها تبطل ببطلان مزاجه، فتنعدم، ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم، كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود. فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة، والنار، والحشر، والنشر، والقيامة، والحساب. فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام."[1] وحكم الإمام الغزالى عليهم بأنهم زنادقة، لإنكارهم اليوم الآخر.

الثالث: الإلهيون. وهم المتأخرون منهم، مثل: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو. وهؤلاء ردوا على الصنفين الأولين، وهؤلاء خرجوا عن إطار الدين، وكذلك من تبعهم من فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا. وعلومهم التى اشتغلوا بها هى:

١- العلوم الرياضية وهذه لا ضرر منها فى العلوم الدينية، إلا أنه تولد عنها آفتان.

الأولى: قد ينظر البعض أن بدهيتها ووضوح براهينها، ينسحب أيضًا على كل العلوم الفلسفية، فيحسن الظن فى اعتقاده بالفلاسفة، فيظن أنهم على صواب دائما فيثق فى كل كلامهم، ويقول لو كان الدين حقًا، لما اختفى على هؤلاء، مع تدقيقهم فى هذا العلم، فينخدع بهم. وكم ضل بسبب هذا أناس كثيرون، حيث

---

١) السابق: ص ٩٧.

أحسنوا الظن بهم فى العلوم كلها، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى، وفى الإلهيات تخمين."[1]

الثانية: إنكار البعض لكل ما يأتون به، حق الصحيح فيه، وهذا منهج ليس قويمًا؛ لأن من يكون على هذا الرأي ينكر أشياء ثابتة بالعلم والتجربة، فيظن أن هذا يتعارض مع الدين، فيعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلاسفة حبًا وللإسلام بغضًا. "ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس من تعرض هذه العلوم بالنفى والإثبات، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية."[2]

٢- <u>المنطقيات</u>، وهى علوم تبحث فى طريق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، إلى غير ذلك من المباحث المنطقية. وهذا العلم لا يتعلق شىء منها بالدين نفيًا أو إثباتًا، ولا سبيل لأحد لإنكار هذا العلم، ولكن قد يظن أن كل موضوعات الفلسفة من الوثاقة مثل المنطق فيستحسنها وينخدع بهم فى العلوم الإلهية.

٣- <u>الطبيعيات</u>، وهى علوم تبحث فيما يتعلق بالعلم، وما فيه من أجسام وتركيبات، ولا سبيل لإنكار هذا العلم أيضًا.

٤- <u>الإلهيات</u>، وكما يقول الإمام الغزالى عنها: "فيها أكثر أغاليطهم، ما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه فى المنطق، وكذلك كثر الاختلاف بينهم فيها".[3] وقد كفرهم الإمام فى ثلاث مسائل: إنكارهم بالبعث الجسمانى وأن المثاب

---

١) السابق: ص ١٠١.

٢) السابق: ص ١٠٢

٣) السابق: ص ١٠٦.

والمعاقب الأرواح فقط. وإنكارهم على الله العلم بالجزئيات ولكنه يعلم الكليات فقط. وقولهم بقدم العالم. وقد بدعهم فى سبعة عشر مسألة.

٥- <u>السياسات</u>، وهذه العلوم ترجع إلى الحكم المصلحية، المتعلقة بالأمور الدينية، "وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء."[1]

٦- <u>الخلقية</u>، "وجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى، وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم."[2] ولكن نشأ فى هذا العلم أيضًا آفتان:

الأولى: إنكار هذا العلم بالكلية؛ لأنه أتى عن طريق الفلاسفة، ظنًا من البعض أن الفلسفة ليس فيها ما ينفع، ولأنهم لم يسمعوا هذا الكلام إلا منهم.

الثانية: قبولهم للفلسفة الخلقية، وبالتالى قبلوا كل ما قاله الفلاسفة، ظنًا منهم أنه على نفس شاكلة هذا العلم.[3]

<u>وأما فى البيئة العربية التى نزل فيها القرآن</u> -مع كون الإسلام عالميًا-، فقد كان فيها طوائف مختلفة، من عبدة الأصنام، والكواكب والملائكة، والجن، والدهريين، وغيرهم. حرك الإسلام عقولهم ليفكروا تفكيرًا صحيحًا ليصلوا إلى نتائج صحيحة. ناقش عبدة الأوثان والأصنام -وهم الغالبية العظمى- بأنها لا

---

١) المنقذ من الضلال. ص ١٠٩.

٢) السابق: نفس الصفحة.

٣) السابق: نفس الموضع.

تضر ولا تنفع، وجاء القرآن بمناقشة سيدنا إبراهيم –عليه السلام– لقومه، لبيان الحق فى هذا –كما سيأتى فيما بعد إن شاء الله–. وناقش الدهريين، ورد عليهم بأدلة مقنعة –كما سيأتى أيضًا–. وكان منهم من أنكر البعث، مع اعترافه بخلق الله له ابتداء، فرد عليهم، وناقشهم فى كثير من آياته. كما أن القرآن الكريم نزل بعد تحريف وتبديل لليهودية والنصرانية، وبعد عن تعاليمهما فكان لا بد من بيان الحق فى ذلك.

ومع هذا: فقد وجد فى البيئة العربية، من حاول أن يبحث، ويصل إلى الحقيقة وكان منهم الحنفاء، أمثال: قس بن ساعدة الأيادى، وأمية بن أبى الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل. كما كان من العرب من يدرس النصرانية، وترجم بعض نصوص النصرانية إلى العربية. ويمكن القول إن العرب كان لهم بعض النظرات الفلسفية أو التى تثير العقل وإن كانت ليست على منهج علمى سليم.

جاء القرآن الكريم، فحرك بحيرة الماء الراكد فى الفكر العربى. فالعرب قبل الإسلام كان لهم بعض النظرات الفلسفية فى المسائل التى أثيرت بينهم فيما يتعلق ببعض قضايا الألوهية والعالم والبعث. "كان لا بد إذن للقرآن، من أن يقول الكلمة الفاصلة، فيما كانوا يختلفون فيه، وأن يبين الحق فيما عليه الناس من اعتقادات، وأن يجادل بطبيعة الحال المخالفين، لما أراد أن يقرر من اعتقادات جديدة. وكان لا بد كذلك من أن يكون القرآن نفسه موضع أخذ ورد وجدال بين الذين آمنوا به، وبين الذين ظلوا على ما هم عليه من دين وعقيدة... فالقرآن نزل فى بيئة كانت فى حاجة إليه ومستعدة له. وأنه هو بذاته يدفع قارئيه الذين يتبدرونه إلى أنحاء من التفكير الفلسفى، وهذا ما أعد العرب والمسلمين للتفلسف، ولفلسفة التراث الإغريقى الذى عرفوه فيما بعد."[1]

١) القرآن والفلسفة، د. محمد يوسف موسى، ط. دار المعارف، الطبعة الثانية بدون تاريخ، ص ١١-١٢

نزل القرآن الكريم "ولأن القرآن الكريم دعوة للناس جميعًا، على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير، وكان منه ما يتجه للقلب ليفتح للموعظة، ومنه ما يتجه للعقل ليذعن بالمنطق والدليل. وكان منه بجانب هذا وذاك ما يشتمل على الحقيقة سافرة، ويفهمها الجميع. وكان منه ما يجيء على شكل أمثال {وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ}[1]

فى وسط هذا الجو الفكرى، فى البيئة العالمية والعربية، نزل القرآن الكريم، ليبين بيانًا شافيًا الرأى الصحيح فيما اختلفوا فيه من الآراء المتعددة، وليوقظ العقل إلى التفكير الفلسفى الصحيح، وليضع لبنات بناء الفكر السليم.

١) السابق: ص ٨ والآية فى سورة العنكبوت: ٤٣.

المبحث الثاني

موقف القرآن الكريم من إعمال العقل

القرآن الكريم أعلى من شأن الإنسان، ونظر إليه على أنه خليفة الله تعالى في أرضه {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[1].

هذا الخليفة أكرمه الله تعالى، حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له جميع ما في السماوات والأرض {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ}[2]. وكرمه وفضله على كثير من خلقه {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[3].

ومن رفع القرآن الكريم لمكانة الإنسان كفرد، بين فساد المعبودات الأخرى؛ لأن الذي يعبد أكثر من إله، أو يعبد الإله غير الحق يكون موزعاً بين آلهة متعددة، لا تضر ولا تنفع. مما يجعله متحيراً، غير هاد. ويضرب القرآن الكريم مثلا لذلك فيقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[4].

---

١) سورة البقرة . من الآية : ٣٠ .

٢) سورة الجاثية . من الآية : ١٣ .

٣) سورة الإسراء ..الآية : ٧٠ .

٤) سورة الحج. الأيتان: ٧٣-٧٤.

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1]

ومن تكريم الإنسان وكرامة له، أن وهبه عقلاً يتحمل به المسئولية والأمانة التي ذكرها الله تعالى في قوله : {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[2]. وإن كان الله تعالى اكرم الإنسان وحمله أمانة التكليف، ووهبه العقل المسئول عن ذلك، فإن الله تعالى خلق له هذا الكون ليعمل ويتفكر، ويبحث ويفتش عن أسراره، تحت راية {باسمِ رَبِّكَ}[3]. " وإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون، فلا يجوز أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه موقفاً إيجابياً، وإيجابيته تتمثل في درسه، والنظر فيه للاستفادة منه، بما يعود على البشرية بالخير. والاستفادة من هذه المسخرات في الكون لا تكون إلا بالعلم، والدراسة، والفهم".[4]

والناظر في آيات القرآن الكريم، يجد فيه دعوة صريحة وواضحة، بل واجبة إلى إعمال العقل.

فأول ما نزل من القرآن الكريم، وأول كلمة فيه، هي دعوة إلى القراءة وإلى التعلم، وإشارة إلى قضايا علمية يجب بحثها بالعقل، وملاحظتها بوسائل الملاحظة، أشار إليها القرآن، ولم تعرف إلا في العصر الحديث، وهي أن الإنسان مخلوق من علق، وهي مرحلة من مراحل خلق الإنسان في بطن أمه.

---

١) سورة الزمر. الأية: ٢٩.

٢) سورة الأحزاب . الآية : ٧٢ .

٣) سورة العلق . من الآية : ١ .

٤) تمهيد للفلسفة ص ٩٠-٩٢

وأقسم الله تعالى في أول ما نزل من سور القرآن الكريم " بالقلم "، وهو أداة التعلم والتدوين وإعمال العقل.. {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}[١]

وحث القرآن الكريم على إعمال العقل والفكر والتدبر والنظر في ملكوت الله، للمعرفة، والاستدلال، والاعتبار، والاتعاظ. {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ}[٢]

وكثيرا ما نجد في القرآن الكريم قوله: "... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" "...لقوم يتفكرون" "... لأولي الألباب" "...لأولي النهى" "هل في ذلك قسم لذي حجر " – أي عقل –.

وأشار القرآن الكريم إلى العقل بصيغ متعددة، كالقلب والفؤاد.

وخاطب الناس بما يدل على وجوب إعمال عقولهم، بقوله مثلاً: "يعقلون"، "يفقهون"، "يتفكرون"، "ينظرون"، "يبصرون"، "يتدبرون"، "يعلمون"، "يتذكرون"، "يعتبرون"..

"والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة، أو مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من موضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه. ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية، على اختلاف أعمالها وخصائصها".[٣]

---

١) سورة القلم . الآية : ١ .

٢) سورة الأعراف . من الآية : ١٨٥ .

٣) التفكير فريضة إسلامية . أ / عباس محمود العقاد . صـ٣ طبعة مكتبة نهضة مصر .

وإذا نظرنا إلى آية واحدة من آيات القرآن الكريم، نجد أن الحق تبارك وتعالى، حث الإنسان على النظر في ثمانية دلائل من أدلة وحدانيته وقدرته، ينظر فيها، ويعتبر، ويعمل عقله ليصل إلى الحق. يقول تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[١]

" عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة. فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا؟. فقال: أقول يا أمة كما قال الأول: زر غباً – حيناً بعد حين – تزدد حباً. قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شئ رأيتيه من رسول الله ﷺ. قال : فسكتت. ثم قالت : لما كان ليلة من الليالي قال : يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي. قالت : والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك. قالت : فقام فتطهر، ثم قام يصلي. قالت : فلم يزل يبكي حتى بل حجره. قالت : ثم بكى. فلم يزل يبكي حتى بل لحيته. قالت : ثم بكى. فلم يزل يبكي حتى بل الأرض. فجاء بلال يؤذنه للصلاة. فلما رآه يبكي. قال : يا رسول الله، لم تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر. قال : أفلا أكون عبداً شكوراً. لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها، ولم يتفكر فيها. {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. الآية كلها".[٢]

والقرآن الكريم يشير إلى أن من يعطل عقله مع باقي حواسه في النظر

---

١) سورة البقرة . الآية : ١٦٤ .

٢) صحيح ابن حبان عن عطاء . كتاب الرقاق . باب التوبة . حديث رقم ٦٢٢ جـ٢ صـ٢٢٨ .

الصحيح المؤدي إلى معرفة الله تعالى، يكون أقل من الحيوانات العجماوات، ويكون من أهل النار – والعياذ بالله – {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[1].

والقرآن الكريم يذكر أهلَ النار في الآخرة، واعترافهم بجنايتهم، وأن مما أوصلهم إلى هذا المصير، هو عدم استعمال عقولهم في النظر إلى الحق، وإلى ما يأتي به الرسل – عليهم السلام – {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ}[2].

والإنسان سيحاسب على حسن أو إساءة استخدام عقله مع باقي حواسه، يقول تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}[3].

وأحاديث النبي ﷺ كثيرة وشاهدة بمكانة العقل، وبوجوب العمل به، وأنه مناط التكليف. ولعل من أوضح الأمثلة على هذا حديث سيدنا معاذ ﷺ عندما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن إذ قال له: "بم تقضي يا معاذ، قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلو – أي لا أقصر – فضربه رسول الله ﷺ على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، لما يرضي رسول الله"[4].

ولا يخفى أن الاجتهاد هنا وهو مصدر من مصادر التشريع، يعتمد على

١) سورة الأعراف . الآية : ١٧٩ .

٢) سورة الملك . الآيتان : ١٠ ، ١١ .

٣) سورة الإسراء . الآية: ٣٦ .

٤) رواه الإمام أبي داود في سننه .حديث رقم ٣٥٩٤ . كتاب الأقضية . باب اجتهاد الرأي.

العقل في النظر الثاقب، والموازنة بين الأمور، والعمل بما فيه المصلحة.

إزالة الإسلام لكافة العوائق أمام العقل.

إذا كان العقل بهذه المكانة في الإسلام، وحتى يقوم بدوره على الوجه الأكمل، فإن الإسلام قد اتخذ خطوات للقيام بوظيفته في التفكير الصحيح. تمثل هذا في إزالة العوائق التي تمنعه من أداء دوره. ومن أهم هذه العوائق:

١– الاستقلال الفكري ورفض التقليد الأعمى. فمع أمر الإسلام بإعمال العقل والتفكر والنظر، نهى أيضاً عن التقليد، الذي فيه تعطيل للعقل عن القيام بدوره في الحياة. فالإنسان صاحب العقل، لا ينبغي عليه أن يقلد. ولهذا كان عيب المشركين في عدم سماعهم دعوات الأنبياء – عليهم السلام – هو تقليدهم لآبائهم وأسلافهم تقليداً أعمى. يحكي القرآن الكريم في كثير من آياته موقفهم هذا {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ}[1].

والقرآن الكريم يأمر هؤلاء الأتباع للسابقين على غير هدى، بعقد مقارنة بين ما ورثوه عن آبائهم، وما أتى به الأنبياء، لينظروا أين الحق {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}[2].

وفي الحديث النبوي الشريف نهى عن التقليد الأعمى بغير هدى. " لا تكونوا إمعة تقولوا: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا

١) سورة المائدة . الآية : ١٠٤ .

٢) سورة الزخرف . الآيتان : ٢٢– ٢٤ .

أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا"[1].

٢ – **تطهير العقل من الخرافات والأوهام.** فالحق تعالى ربط كل شئ بسلسلة من الأسباب والمسببات. فإذا حدث شئ فله سببه، فلا يقال مثلاً: إن سبب حدوث هذه الزلازل أن الأرض محمولة على قرن ثور، فإذا تعب نقلها على القرن الآخر. وكذلك الكسوف والخسوف لهما أسبابهما المعروفة، فلا يقول أحد أن السبب شئ آخر وقد حدث مثل هذا في عهد النبي ﷺ عندما توفي ولده إبراهيم، وقد تصادف أن كسفت الشمس، فظن بعض الناس أنها كسفت حزناً على إبراهيم، فالنبي ﷺ لم تشغله وفاة ابنه وحزنه عليه من أن يبين لهم الحق. فقال: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله "[2].

٣ – **القضاء على الدجل والشعوذة وإبطال الكهانة.** فلا كهانة ولا أحد يتحكم باسم الدين، ولا واسطة بين الله تعالى وبين الناس، فالله تعالى معنا في كل وقت وحين، وهو يعلم ما توسوس به أنفسنا، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[3]. ويقول تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[4].

---

١) رواه الإمام الترمذي في سننه. عن حذيفة. حديث رقم ٢١٣٨. كتاب البر والصلة. باب ما جاء في الإحسان والعفو.

٢) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي بكرة. حديث رقم ٥٧٨٥. كتاب اللباس. باب من جر إزاره من غير خيلاء.

٣) سورة ق. الآية: ١٦.

٤) سورة البقرة. الآية: ١٨٦.

"فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوقين والخالق... ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب، أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الإله المعبود، فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[1]. والقرآن الكريم ألغى سلطة رجال الدين، الذين يحلون ويحرمون بأهوائهم، فقال: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[2]. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[3].

ويقاس مكانة الإنسان عند ربه، بعلمه وتقواه. {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}[4]. ويقول النبي ﷺ: (لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي. ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى)[5].

والنبي ﷺ يؤكد هذه الحقيقة في كثير من أحاديثه، منها مثلا قوله لسيدنا عبد الله بن عباس: "... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك،

---

١) سورة البقرة. من الآية: ١١٥. وانظر: التفكير فريضة إسلامية ص١٥.

٢) سورة التوبة. الآية ٣١.

٣) سورة التوبة. الآية ٣٤.

٤) سورة الحجرات. من الأية: ١٣.

٥) رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي نضرة. حديث رقم: ٢٣٥٣٦. جـ ٥، ص ٤١١. ط. مؤسسة قرطبة. القاهرة.

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف "[1].

وبين الإسلام أن فهم النصوص، ليس وقفاً على أحد بعينه، فلا حجر على العقول في فهمه، طالما أوتي أسبابه.

٤ – المسئولية الكاملة لكل إنسان. فكل فرد مسئول مسئولية تامة عن عمله فلا يتحمل إنسان ذنب إنسان آخر {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى}[2]. {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[3]. {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[4]

ومن المسئولية الكاملة لكل إنسان أن القرآن الكريم ألغى كل قهر أو استبداد، من سلطة حاكمة، تضل عن سبيل الله. يقول تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}[5] يقول النبي ﷺ:"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.[1] وهذا

---

١) رواه الإمام الترمذي في سننه عن ابن عباس . كتاب صفة القيامة . باب رقم ٥٩ حديث رقم ١/١٥١٦ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . سنن الترمذي . تحقيق الشيخ إبراهيم عطوة جـ٤ صـ٦٦٧ . طبعة دار الحديث .

٢) سورة النجم . الآيات : ٢٨ – ٤٢ .

٣) سورة الزلزلة. الأيتان: ٧-٨.

٤) سورة فاطر. من الأية: ١٨.

٥) سورة الأحزاب. الآيات ٦٦-٦٨.

حتى يقوم العقل بدورة الكامل فيما خلق من أجله.

فلا خطيئة موروثة، ولا فداء لأحد عن آخر. " وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه في الأمن على نفسه، وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية، التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا. وهذه المقاصد الضرورية هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال "[2].

فالإسلام بهذه الأمور وغيرها أقام صرحاً شامخاً قائماً على حرية الفكر، وإعمال العقل فيما ينفع، وأنه لا عبودية ولا انصياع إلا لله تعالى وحده. " علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون، ودلائل الحوادث. وإنما المعلمون منبهون ومرشدون، وإلى طريق البحث هادون. صرح في وصف أهل الحق بأنهم: "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه "[3]. فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا أحسنه، ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون، لا بما يظنون ويتوهمون... بهذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان، طالما حرم منهما، وهما : استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته "[4].

---

١) المعجم الكبير للطبراني. تحقيق: حمدى عبد المجيد السلفى. جـ١٨. صـ١٨٥. الطبعة الثانية. سنة ١٤٠٤هـ. ١٩٨٣م.

٢) تمهيد للفلسفة صـ٩٤ . وانظر : الموافقات . الإمام الشاطبي . جـ٢ صـ١٠ طبعة دار المعرفة – بيروت .

٣) سورة الزمر . من الآية : ١٨ .

٤) رسالة التوحيد . الإمام الشيخ محمد عبده . تحقيق د / محمد عمارة صـ١٤٠ وما بعدها طبعة دار الشروق . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٤هـ /١٩٩٤م .

وعلى الرغم من وضوح ذلك الأمر فإن بعض المستشرقين رأى أن القرآن الكريم يعوق النظر العقلى الفلسفى، ودافع أصحاب هذا الرأى هو التعصب الديني. ومن أبرز من يمثل هذا الرأي، الفيلسوف "تنمان"؛ حيث يرى أن المانع والعائق للمسلمين من التفلسف، هو دينهم، وتمسكهم بالنصوص فيه، واتباعهم لطائفة معينة في الفكر. يقول هذا المستشرق: "العرب شعب مجبول على استعدادات قوية وثابتة. ولقد كان أولاً صابئياً، ثم استمد حماسة دينية وحربية من دين محمد المتوفى سنة ٦٣٢هـ، وهو دين شهواني وعقلي معاً، ومن آثار خلفائه وتفاسيرهم لما يزعمونه وحيا أوحاه الله إلى هذا النبي". ويقول: "يكاد يكون أرسطو مع شراحه إلى فيلوبنوس من بين سائر الفلاسفة هو الذي استرعى أنظار العرب، وقد تلقوا جملة ما ألفه أرسطو، ولكنهم تلقوها على الحقيقة عن تراجم ناقصة جداً، بواسطة خادعة، هي وساطة المذهب الأفلاطوني الجديد، أضافوا إلى هذه الدراسة العلوم الرياضية، والتاريخ الطبيعي، والطب. ولكن عدة عقبات ثبطت تقدمهم في الفلسفة. وهذه العقبات هي :

١) كتابهم المقدس، الذي يعوق النظر العقلي الحر.

٢) حزب أهل السنة، وهو حزب متمسك بالنصوص.

٣) إنهم لم يلبثوا أن جعلوا لأرسطو، سلطاناً مستبداً على عقولهم، دون حسن تفهمهم لمذهبه من الصعوبات.

٤) ما في طبيعتهم القومية من ميل إلى التأثر بالأوهام.

من أجل ذلك: لم يستطيعوا أن يصنعوا، أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو، وتطبيقه على قواعد دينهم، الذي يتطلب إيماناً أعمى، وكثيراً ما أضعفوا مذهب أرسطو، وشوهوه"[1].

---

١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . صـ٤ .

من خلال كلامه السابق، يتضح تحامله، وتجنيه الواضح على الإسلام، والمسلمين، والعقلية الإسلامية، وبمناقشة دعاواه السابقة، يتبين خطؤه.

الرد على الادعاء الأول: نقول: "إن الإسلام لم يعق النظر العقلي، بل دعا إليه، وأوجبه على المسلم، وقد ذكرنا ذلك في المباحث السابقة بما فيه كفاية.

الرد على الادعاء الثاني: نقول: في كل دين وفكر، يتمسك أهله، بما ورد فيه من نص، حتى لا يخرجوا عن إطار هذا الدين والفكر. ونصوصنا قطعية الثبوت عندنا.

كما أن حزب أو فرقة أهل السنة، هم الذين استخدموا المناهج العقلية بجانب القرآن الكريم، ولفهم القرآن الكريم، وإيصال معناه إلى الناس. وكيف يكون حزب أهل السنة عائقاً عن التفكير، وقد نشأ في ظله علماء أعلام، حملوا مشاعل العلم والفكر والحضارات لمئات السنين، وهم الذين أضاءوا بعلومهم أوروبا، وأسسوا العلوم الحديثة.

الرد على الادعاء الثالث: نقول: إن الفلاسفة المسلمين قرأوا لأرسطو، ولغيره، ولم يكونوا مقلدين، أو نسخاً لأحد، ؛ بل كانت لهم رؤيتهم، واتجاهاتهم الخاصة، بل إننا نجد مثلاً – كما سيأتي – أن الفارابي يبين أنه على راغب الوصول إلى الحق، ألا يقلد غيره تقليداً أعمى، ولا يكون أحد أحب إليه من الحق مهما كان، حتى وإن كان أرسطو، أو فلسفته. يقول الفارابي: "وأما الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل، الذي علم أرسطو، فهو أن يكون في نفسه، قد تقدم، وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانية، كما تكون شهوته للحق فقط، لا للذة.. وأما قياس أرسطو، فينبغي ألا تكون محبته له، إلى حد يحركه ذلك أن يختاره على الحق"[1].

وابن سينا اشتهر عنه أيضاً، نقده للردئ من الأفكار – كما سيأتي – حيث

---

١) رسالة ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة . الفارابي . صـ١٥ . طبعة المكتبة السلفية .

يذكر بعد حديث مستفيض عن النفس، وعن كلام السابقين: "وكان لهم رجل يعرف بفورفوريوس، عمل في العقل والمعقولات كتاباً يثني عليه المشاؤون، وهو حشف كله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم لا يفهمونه، ولا فورفوريوس نفسه، وقد ناقضه من أهل زمانه رجل، وناقض هو ذلك الناقض بما هو أسقط من الأول"[١].

الرد على الادعاء الرابع: نقول: لا يخفى ما في كلامه من نزعة وتعصب عنصري ممقوت. كما لا يقوم كلامه على دعوى صحيحة. "وهكذا كان تنمان متعصباً ضد الإسلام، وكتابه، وضد الطبيعة القومية للعرب"[٢].

١) الإشارات والتنبيهات. ابن سينا. تحقيق د/ سليمان دنيا. جـ٣ صـ٢٧٢. طبعة دار المعارف. الطبعة الثالثة.

٢) من المشرق إلى المغرب. صـ١١٨.

المبحث الثالث

القرآن الكريم يدعو إلى التفلسف

القرآن الكريم -كما أشرنا سابقًا-، كتاب عام صالح لكل زمان ولكل مكان. حدد علاقة الإنسان بربه -سبحانه وتعالى- وعلاقته بنفسه، وبمن يعيش معهم، وبالبشرية جمعاء. ومما جاء به القرآن الكريم تغيير المعتقدات، والأفكار الراسخة المتجزرة فى قلوب الناس، والرد على الأفكار الباطلة ردًا مقنعًا، مما أثار تفكيرهم، وجعلهم يفكرون تفكيراً جديداً ليصلوا إلى الصواب.

ولا شك أن هذا النقاش والتقاء الأفكار يجلب الجدل. وقد أباح القرآن الكريم الجدل الموصل إلى الحق وإلى الصواب. {وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ}[١]. {وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ}[٢]. {قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا}[٣].

وإذا كان الجدل مشروعًا للأنبياء -عليهم السلام- لوصول أقوامهم إلى الحق، فهو كذلك مشروع لمن يريد أن يصل إلى الحق.

وحذر الإسلام من الجدل الذى يدعو إلى الفرقة، والتناحر، والتقاتل، والتفرق، يقول تعالى: {أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ}[٤]. {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}[٥]. {وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ

١) سورة العنكبوت. من الآية: ٤٦

٢) سورة النحل. من الآية ١٢٥

٣) سورة هود من الآية: ٣٢

٤) سورة الشورى من الآية ١٣

٥) سورة الأنعام الآية ١٥٩

أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[1].

والقرآن الكريم حدد طريقة النظر فى النصوص، والتى تقوم –كما سبق– على إعمال العقل والفكر والتدبر، ورفض التقليد الأعمى، ورفض التبعية لأحد.

تطور الفكر الفلسفى فى المحيط الإسلامى:

المسلمون في العصر الأول تلقوا القرآن من الرسول ﷺ آمنوا بمحكمه وسلموا بمتشابهه، وقالوا كما حكى القرآن الكريم {ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}[2]، ولكن المسلمين مع معاصرتهم للرسول، وهم يسألونه عما يحتاجون إليه، أو معاصرة من عاصرهم، ومع شغلهم بحروب الردة، والفتوحات الإسلامية، لم يكونوا بحاجة إلى درس القرآن الكريم، والتعمق فيه بنظرة فلسفية واستخراج أسس القضايا الفلسفية المختلفة المتعلقة بالله والكون والإنسان. ولا غرو أن هذا العصر فى مجمله، إلا من شذ، كان المسلمون على رأى واحد وفكر واحد، لا اختلاف فى قضايا العقيدة. ولم يرد أن أحدًا من الصحابة –رضوان الله عنهم أجمعين– على كثرتهم سأل النبى ﷺ عن صفات الله تعالى، وذلك أنهم فهموا المراد منها، وسكتوا عن السؤال، مع إيقانهم بأنه تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ}[3]. ولذلك كان من أصول أهل السنة: "الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والصبر على حكم الله، والأخذ بما أمر الله، والنهى عما نهى الله عنه، والإخلاص بالعمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله، وترك المراء والجدال

١) سورة الحج. الآيتان: ٦٨-٦٩
٢) سورة آل عمران. من الآية: ٧
٣) سورة الشورى. من الآية: ١١

والخصومات فى الدين..."[1] وكان من الصحابة والتابعين من يتيهب أن يتحدث فى تفسير القرآن الكريم. يقول عبد الله بن عمر –رضى الله عنهما– كما نقل الطبرى فى تفسيره: "لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليغلظون القول فى التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع"[2].

وفى المقابل: وجد أيضًا فى العصر الأول، من حاول أن يسأل عن تأويل بعض الآيات، والسؤال عما يظنه تعارضًا. من ذلك: ما حدث مع عبد الله بن عباس –رضى الله عنهما–، فقد سأله رجلاً قائلاً: "إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: {فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ}[3]. {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ}[4]. {وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا}[5]. {رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}[6]. فقد كتموا فى هذه الآية. وقال: {أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا} إلى قوله {دَحَىٰهَآ}[7] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ} إلى {طَآئِعِينَ}[8] فذكر فى هذه خلق الأرض قبل السماء. وقال: {وَكَانَ ٱللَّهُ

١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، أبو الحسن محمد الملطى، تحقيق محمد زاهد الكوثرى. ص ١٥. ط. المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية ١٩٧٧م
٢) تفسير الطبرى، جـ ١ صـ ٨٥
٣) سورة المؤمنون. من الآية: ١٠١
٤) سورة الصافات. الآية: ٢٧
٥) سورة النساء. من الآية: ٤٢
٦) سورة الأنعام. من الآية: ٢٣
٧) سورة النازعات. الآيات: ٢٧-٣٠
٨) سورة فصلت. من الآية: ٩

عثمان: "كذبتم! فلو رمانى الله تعالى ما أخطأنى[1]. فقد احتجوا بأن فعلهم هذا بقدر الله، كتبه عليهم، وبالتالى فهم مجبرون عليه.[2]

وما حدث فى عهد سيدنا على –رضى الله عنه– فـ "إن شيخًا قام إلى على بن أبى طالب –رضى الله عنه– بعد انصرافه من صفين، فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئًا، ولا هبطنا واديًا، ولا علونا تلعة، إلا بقضاء وقدر، فقال الشيخ: عند الله أحتسب خطاى، ما أرى لى من الأجر شيئًا، فقال له: مه أيها الشيخ! عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شىء من حالتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين. فقال الشيخ: كيف والقضاء والقدر ساقانا. فقال: ويحك، لعلك ظننت قضاءً لازمًا، وقدرًا حتمًا، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، ولم تأت لائمة من الله لعيب، ولا محمدة لمحسن"[3]. وكان هذا الكلام بدايات القول بالقدر، على ما ابتدعه معبد الجهنى، والذى حاول أن يلتمس ما يؤيده من القرآن الكريم.

ويمكن القول فى الحالات السابقة: أن النهى كان بسبب أنهم كانوا يتتبعون المتشابه من القرآن، ليس لمعرفته، لكن لابتغاء التأويل الغير سائغ، وابتغاء إيقاع الفتنة بين الناس، وأن النهى عن البحث فى القدر كان لأجل السؤال عنه، لماذا خلق الله كذا؟ أو لماذا كان كذا، ولم يكن كذا؟ أو لماذا يحدث له كذا؟ وهذا مما

---

١) تاريخ دمشق. ابن عساكر. جـ٥٥. صـ ١٢

٢) راجع: تاريخ الفرق، د. محمود محمد مزروعة. ط. دار المنار. الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ ١٩٩١م، صـ ٦٨-٦٩.

٣) المسامرة للكمال بن أبى شريف. شرح المسايرة.للكمال بن الهمام. صـ١٣٣. ط. المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق، الطبعة الأولى. سنة ١٣١٧هـ

يتعلق بالله تعالى مما لا يجوز الخوض فى أسراره. أما البحث فى معرفة القدر فهو جائز، كيف وهو ركن من أركان الإيمان لا يتم بدونه؟

وظهر فى العصر الثانى ما يمكن أن نسميه معارضة القرآن بعضه ببعض، أو الأخذ ببعض آيات القرآن للاستدلال على أمر معين أو تقوية رأى معين، هذا الأمر لم يكن موجودًا فى العصر الأول. ويمكن القول أن: "كراهة معارضة القرآن بعضه ببعض فى هذه الفترة، لم يكن سببها خوف المسلمين أن يظهر القرآن متعارضًا أو متهافتًا غير متماسك، إنما كانوا يخافون الجدل فى الدين، والبحث عما سكت القرآن والرسول عن بيانه، ويرون أنه: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"[1]، كما كانوا يعتقدون أن معرفة هذا المسكوت عن بيانه لو كان ذلك ممكنًا لا تفيدهم فى حياتهم الدنيا أو فى الآخرة".[2]

إذن، يوجد موقفان متقابلان –من حيث الظاهر– فى العصر الأول، اتجاه المتمسكين بعدم تأويل أو حتى تفسير القرآن، واتجاه المجيزين تأويله إذا استشكل منه أمر، بل وجوب ذلك. وفى الحقيقة لا تقابل من أى نوع من الموقفين، فإن التأويل المقبول، الذى يعتبر جائزًا بل واجبًا هو الذى يعتمد على النص، وله سند من اللغة، ولا يتعارض مع بدهيات العقول. أى التأويل الذى يكون على علم، ولذلك ورد عن سيدنا أبى بكر –رضى الله عنه– قوله: "أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى، إذا قلت فى القرآن برأيى أو بما لا أعلم".[3] وقد ورد عن ابن عباس عن النبى –صلى الله عليه وسلم– قوله: "من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده

---

١) رواه الإمام الترمذى فى سننه، كتاب التفسير. باب سورة الزخرف. حديث رقم: ٣٥٦٢.

٢) القرآن والفلسفة. صـ ٣٣

٣) تفسير الطبرى. جـ ١ ص ٧٨

"من النار".[1] أما التأويل أو التفسير المذموم المنهى عنه فهو الذى يعتمد على الرأى والهوى.

هذا كان هو الحال فى العصر الأول، وكان دافع أصحاب الموقفين معًا، هو الحرص كل الحرص على معرفة آيات القرآن الكريم المعرفة الحقة عن علم، وعدم القول فيه بغير علم، وبخاصة فى دقائق المسائل العقدية.

أما فى العصر الثانى، بعد زمن الصحابة والتابعين، وهو ما يمكن أن يسمى بعصر الخلف، وبعد الفتوحات الإسلامية ودخول الكثير من الطوائف فى الإسلام، وكان بعضهم لم ينعم بعد بالهدوء القلبى فى الإسلام، وبعد ترجمة الكثير من الكتب المختلفة، وبخاصة الكتب الفكرية إلى العربية، كان للناس نظرة أخرى لآيات القرآن الكريم، حيث جرأ بعضهم على الخوض فى البحث فى دقائق الآيات المتعلقة بالمسائل العقدية، وبخاصة المتشابهات، مما نتج عنه الآراء المختلفة، وكل رأى حاول –كما سبقت الإشارة– أن يلتمس ما يؤيد مذهبه من آيات القرآن الكريم مما أثار التفكير الفلسفى لدى الناس.

الحكمة من ورود الآيات المتشابهات فى القرآن الكريم

قد يرد سؤال، عن الحكمة من وجود الآيات المتشابهات فى القرآن الكريم، فى المسائل العقدية. فى الحقيقة إن هناك أسبابًا متعددة. منها: ما أخبر الله تعالى عنه، حتى تكون اختبارًا لمن يذعن وينصاع لأمر الله تعالى، وليقول كما يقول الراسخون فى العلم: {ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}.[2]

ومن الحكم أيضاً كما يقول الإمام الرازى إن منها أوجها:

١) السابق نفس الصفحة

٢) سورة آل عمران. من الآية: ٧

الأول: إنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ}.[1]

الثانى: لو كان القرآن محكمًا بالكلية، لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله، وعن النظر فيه. فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوى مذهبه، ويؤثر مقالته. فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد فى التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا فى ذلك، صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات. فبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله، ويصل إلى الحق.

الثالث: أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكمًا لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذ كان يبقى فى الجهل والتقليد.

الرابع: أنه يؤدى إلى تعلم علوم كثيرة، لتعلم التأويلات وترجيح بعضها على بعض.[2]

ويذكر الزمخشرى أن الحكمة من كون القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه، "أنه لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل، من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق

١) سورة آل عمران. الآية: ١٤٢

٢) التفسير الكبير. جـ ٤. ص ١١٠.

الذى يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به. ولما فى المتشابه من الابتلاء، والتميز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه..."[1] ولا يخفى النزعة الاعتزالية فى هذا النص.

موقف السلف والخلف من المحكم والمتشابه

وإذا كان القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه، فمن المتشابه آيات توهم مشابهة الله –تعالى عن ذلك– لمخلوقاته وفى آيات أخرى تنزهه عن ذلك، فإن السلف غلبوا أدلة التنزيه لكثرتها، ولوضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه، وقضوا بأن الآيات من كلام الله، فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، وهذا معنى قول الكثير منهم: "أمروها كما جاءت" أى آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن يكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له"[2].

لم يستمر الحال، بل وجد من شذ عن التسليم ونزع منزع التأويل، يقول ابن خلدون: "وشذ لعصرهم مبتدعة، اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا فى التشبيه".[3]

ثم جاء بعد ذلك المعتزلة، وقد تسلحوا بالفلسفة والمنطق، للرد على الأعداء والمخالفين. وكان لهم رأى خاص فيما يتعلق بمثل هذه الآيات، حيث نفوا صفات المعانى، من العلم والإرادة والحياة وغيرها زائدة على أحكامها، وحجتهم فى هذا: أنه يقتضى إثبات قدماء مع الله تعالى. ونفوا الإرادة، فلزمهم نفى القدر؛ "لأن معناه: سبق الإرادة للكائنات، وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام، وقضوا بنفى الكلام، وقضوا بأن القرآن مخلوق".[4] كما عملوا على تأويل الآيات حتى تتفق مع مذهبهم.

---

١) الكشاف. جـ١. ص ٢٥٥.

٢) المقدمة، ص ٢٦٨.

٣) السابق، نفس الموضع.

٤) السابق، نفس الصفحة.

ولا شك أن هذه الآيات واختلاف وتنوع تناولها، واختلاف وتعدد المستدلين بها، كان له الأثر الواضح فى التفكير الفلسفى فى الإسلام.

والقرآن الكريم أثار التفكير الفلسفى من ناحية أخرى، وذلك أنه فى بعض آياته، حدد المراد من القضية المطروحة. وفى آيات أخرى، فى قضايا متعلقة بالفلسفة الإلهية والفلسفة الطبيعية، لم يحدد المراد، بل ذكر القضية عامة دون تحديد أو تفصيل، وهذا يجعل العقل الإنسانى يفكر فى المراد من النص وهذا يجعل الرؤى تتعدد فى المسألة الواحدة.[1] وكل فكر أو رأى يصل إليه إنسان له ما يسانده فى القرآن أو بمعنى أدق لا يوجد ما يعارضه.

كما أن القرآن الكريم أثار التفكير الفلسفى فى كثير من القضايا الفلسفية، وذلك بإيراد الكثير من الآيات التى تدعم قضية معينة، وذلك بالمشاهدة والملاحظة، وبالتالى يدعو العقل إلى أن يفكر فيها، ويستخرج النتيجة منها، فمثلاً القائلون بالصدفة، وإنكار وجود إله صانع لهذا لكون، يذكر القرآن الكريم خلق العالم، وما فيه من دقة وإبداع وإحكام، وبالتالى لا يمكن أن يكون هذا العالم وجد بغير موجد، أو وجد على سبيل الصدفة، من هذه الآيات: {إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}[2]. {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها

---

١) راجع: القرآن والفلسفة. ص٤٩.

٢) سورة البقرة. الآية: ١٦٤.

رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِۦ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ *}[1].

والآيات فى هذا الصدد كثيرة جدًا، وسيأتى مزيد ذلك عند الحديث عن الأدلة على وجود الله تعالى.

والقرآن الكريم أشار إلى مصادر المعرفة وأشار إلى الاعتماد على الحس والعقل معًا، واتخاذ المناهج المختلفة لمعرفة حقائق الأشياء والوصول إلى الحق. وهذا ملاحظ فى كثير من آياته. ولعل إثارة التفكير لمعرفة أنه تعالى الخالق لهذا الكون – كما سبق وسيأتى– خير دليل على هذا.

ومن ذلك الاستدلال على البعث بالقياس بالخلق الأول وهو ما يعرف بقياس الغائب على الشاهد، أو قياس الأولى، وبالتالى الوصول إلى المطلوب، والآيات فى هذا كثيرة منها:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

١) سورة ق. الآيات: ٦–١١.

وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ *}[1]. {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *}[2]. {وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *}[3].

فالله تعالى يوجه عقل الإنسان إلى النظر فى خلقه الأول، وهذا أمر مشاهد محسوس ملاحظ، فإذا وجد الإنسان أول مرة من لا شىء، فإعادته مرة ثانية سواء أكان جمعًا بعد تفريق، أم من عدم أيسر وأهون فى ميزان العقل، {وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[4]. على أنه لا يوجد أيسر وأصعب بالنسبة لله تعالى، {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ}[5]. وإذا كانت الإعادة جائزة فيوم الحساب لا ريب فيه.

١) سورة الحج. الآيات: ٥–٧.

٢) سورة يس. الآيات: ٧٨–٨٣.

٣) سورة فصلت. الآية: ٣٩

٤) سورة الروم. من الآية: ٢٧.

٥) سورة يس. الآية: ٨٢.

أثار القرآن الكريم العقول إلى التفكير الفلسفى أيضًا، فى إيراده للنصوص الكثيرة، عن عالم الغيب، والإيمان بما هو غير محسوس، بما لا يستطيع العقل وحده أن يستقل بمعرفته. إن القرآن الكريم أنزل؛ "أولاً لتعريفنا بالله معرفة حقة، ثم لإعدادنا بهذه المعرفة –متى تمت لنا– لأن نؤمن بكل ما أخبرنا به من الأمور الغيبية، التى لم يستطع العقل حتى الآن إدراكها، بمفرده، بل أدركها من الوحي، وهي: ذات الله وصفاته والدار الآخرة وما يكون فيها مثلاً".

إن النظر فى آيات القرآن الكريم، التى تتحدث عن هذا الكون، وإبداع الله تعالى له، تهدينا إلى معرفة الله تعالى والاستدلال على وجوده، وأنه الخالق، وأنه تعالى واحد. إننا "لا نجد فى القرآن سورة تخلو من تعريفنا بالله، بآثاره فى هذا العالم – الأرض والسماوات وما بينهما–، لعلنا بهذه الأدلة الدالة عقلاً على وجوده، نعرفه أيضًا بقلوبنا. وإذا ما عرفناه هذه المعرفة آمنا بكل ما يخبر به من غيب لا يصل العقل وحده إلى إدراكه."

والقرآن الكريم أثار التفكير الفلسفى من خلال مناقشة الكثير من القضايا العقدية، ومحاولة كل فريق أن يجد ما يؤيد رأيه من خلال آياته، كما أن القرآن الكريم عرض لكل الديانات والمذاهب والأفكار الباطلة ورد عليها ردا مقنعا. وهذا إجمال يحتاج إلى بعض تفصيل.

التباين في فهم آيات القرآن الكريم

هناك قضايا عقدية ذكرها القرآن الكريم يفهم من بعض آياته أمر ، ويفهم من آيات أخرى معنى مخالف للمعنى الأول . وقد يستنبط البعض معنى في آية ، ويستنبط البعض الآخر معنى آخر منها .

مثال النوع الأول : وردت بعض آيات يفهم منها جواز رؤية الله تعالى ،

مثل قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] . . وقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2] . فالحسنى هي الجنة ، والزيادة هي رؤية الله تعالى في الآخرة[3] .

وآيات يفهم منها عدم جواز رؤية الله تعالى مثل : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4] . ومثل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

كل فريق استدل بأدلة عقلية على صحة مذهبه، مستنبطة من آيات القرآن الكريم، وردّ على الفريق الآخر في استدلاله، وزعم أن الآيات التي يستدل بها محكمة، والآيات المقابلة متشابهة. يقول زمخشري في تفسير أية آل عمران: ﴿مُّحْكَمَاتٌ﴾: أحكمت عباراتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾: مشتبهات محتملات. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أي أصل الكتب،

---

(١) سورة القيامة . الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة يونس . من الآية : ٢٦ .

(٣) انظر في هذا : التفسير الكبير جـ١٧ صـ٦٣ . وتفسير البيضاوي صـ٢٧٧ . طبعة تركيا سنة ١٣٢٨هـ . والجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي جـ٨ صـ٢١٠ . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م . وانظر أيضا : شرح الموقف الخامس في الإلهيات للسيد الشريف الجرجاني . تحقيق: د. أحمد المهدي . صـ٢١٠ وما بعدها . طبعة مكتبة الأزهر. بدون.

(٤) سورة الأنعام . الآية : ١٠٣ .

٥) سورة الأعراف. الأية: ١٤٣.

تحمل المتشابهات عليها، وترد إليها. ومثال ذلك: {لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}[١]. {إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[٢]. {لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}[٣]. {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا}[٤].

وأولوا قوله تعالى:. {إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}: أي الانتظار والتوقع والرجاء. أي: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم.[٥]

ومثال ذلك أيضاً: وكان له أكبر الأثر في التفكير الفلسفي، وتعدد الآراء في المحيط الإسلامي ، البحث في مسألة القدر، ونسبة أفعال العباد؛ حيث وردت بعض آيات يفهم منها أن الإنسان مجبر في أفعاله ، لا اختيار له فيها . مثل قوله تعالى : {فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}(٦) . وقوله : {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}(٧) . وقوله : {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}(٨) . إلى غير ذلك من الآيات .

ووردت آيات أخرى يفهم منها أن الإنسان مختار لأفعاله ، مثل قوله تعالى : {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}(٩) . وقوله : {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا

١) سورة الأنعام. من الأية: ١٠٣.
٢) سورة القيامة. من الأية: ٢٣.
٣) سورة الأعراف. من الأية: ٢٨.
٤) سورة الاسراء. من الأية: ١٦. وانظر: الكشاف. جـ. ١. صـ ٢٥٥.
٥) الكشاف. جـ. ٧ صـ. ١٩٠.
(٦) سورة الأنعام . من الآية : ١٢٥
(٧) سورة الصافات . الآية : ٩٦ .
(٨) سورة الأنعام . الآية : ١٠٢ .
(٩) سورة الإنسان . الآيتان : ٢ ، ٣ .

سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}(١) .

ومن ذلك أيضاً أنه وردت بعض آيات، تفيد أن الله تعالى يأمر بما هو سوء ومعصية. مثل قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[٢]. وهو رأي اهل السنة، من إسناد كل شيء إلى الله تعالى. ووردت آيات أخرى، تفيد أنه لا يأمر بذلك، على ما هو رأي المعتزلة. من ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٣]. وهذا ما جعل كل فريق يري أن الآيات التي استدل بها محكمة، والآيات الأخرى التي تخالف المذهب متشابهة، وجب تأويلها؛ لتتفق مع الآيات المحكمة.

ومثال النوع الثاني : الآيات التي يستنبط منها البعض معنى ، ويستنبط آخرون معنى آخر مثل قوله تعالى : {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}(٤) . حيث ذهب البعض إلى أنها تدل على عدم جواز التكليف بما لا يطاق ؛ لأن معناها عدم التكليف بما يشق فعله مشقة عظيمة .

وذهب البعض الآخر إلى أنها تدل على جواز التكليف بما لا يطاق ، إذ لو لم يكن جائزاً ، لما حسن طلبه بالدعاء من الله تعالى(٥) .

(١) سورة النجم . الآيات: ٣٩ — ٤١ .
٢) سورة الاسراء. الأية: ١٦.
٣) سورة الأعراف. الأية: ٢٨.
(٤) سورة البقرة . من الآية : ٢٨٦ .
(٥) راجع : التفسير الكبير. جـ٧. صـ١٢١ وما بعدها . والإرشاد. لإمام الحرمين. صـ٢٢٦ وما بعدها . تحقيق: د. محمد يوسف موسى . وعلي عبد المنعم عبد الحميد . طبعة. الخانجي. سنة١٩٥٠م . وشرح الموقف الخامس صـ٢٥٢ وما بعدها . وقارن : نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الماتريدية والأشعرية من العقائد لعبد الرحيم بن علي المشهور بشيخ زاده. صـ٣٥٠ وما بعدها . تحقيق: جميل إبراهيم السيد. سنة ١٩٩٤م .

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى : {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[1] . حيث رأى البعض – أي الأشاعرة – أن هذه الآية دليل على جواز الرؤية في الدنيا ، لأن موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولو كانت ممتنعة لما سألها . وأنه علق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر ممكن في نفسه ، والمعلق على الممكن ممكن ، فالرؤية ممكنة .

واستدل البعض – أي المعتزلة – بهذه الآية على عدم جواز الرؤية ؛ لأن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: {لَن تَرَانِي} ولن للتأبيد ، أي لن تراني أبداً ، وإذا لم يره موسى ، لم يره غيره إجماعاً[2] .

وأمر آخر متعلق بالقرآن الكريم، له أثر كبير في التفكير الفلسفي. فقد وردت كثير من الآيات التي يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى لبعض مخلوقاته في بعض الصفات ، مما جعل البعض يعتقد مشابهة الله تعالى للأجسام ، فظهرت فرق المشبهة والمجسمة . ومن الايات التي استندوا إليها :

قوله تعالى : {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}[3] . وقوله : {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}[4] . وقوله : {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}[5] . وقوله : {فَإِنِ

(١) سورة الأعراف . الآية : ١٤٣ .

(٢) أنظر في هذا : المواقف في علم الكلام . عضد الدين الإيجي. صـ ٣٠٠ ، ٣٠١. طبعة مكتبة المتنبي . القاهرة .

(٣) سورة طه . الآية : ٥ .

(٤) سورة الفجر . الآية : ٢٢ .

(٥) سورة فاطر . من الآية : ١٠ .

اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ}[1] . وقوله : {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ}[2] . وقوله : {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ}[3] . وقوله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}[4] . وقوله : {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}[5] .

والأحاديث التي تدل على الجسمية مثل : حديث النزول . فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسالني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ... "[6] .

وحديث الضحك : فقد روى البخاري عن أبي هريرة من حديث طويل ، وفيه : "... ولا يزال يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ... "[7] .

كل هذه النصوص وغيرها، أدى إلى ظهور تيارات وأفكار متباينة في فهم النصوص وتوجيهها لما يوافق مدعاهم .

فبينما أثبتت فرق مشابهة، هذه النصوص على ظاهرها لله تعالى، قام فريق آخر من المتكلمين – أشاعرة ومعتزلة – بالرد عليهم فيها، وبينوا نفي التشبيه عن الله تعالى، بكل صوره، ومن جميع وجوه من خلال القرآن نفسه. وذلك كقوله

(١) سورة فصلت . من الآية : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة . من الآية : ٢١٠ .

(٣) سورة النجم . الآيتان: ٨ ، ٩ .

(٤) سورة الملك . من الآية : ١٦ .

(٥) سورة المعارج . الآية : ٤ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة إلى آخر الليل صحيح البخاري بحاشية السندي جـ١ صـ٢٠ طبعة دار إحياء الكتب العربية . بدون تاريخ

(٧) البخاري . كتاب الرقائق . باب الصراط على جسر جهنم جـ٤ صـ١٣٩ ، ١٤٠ .

تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[1]. ومن ثم انبرى أهل السنة، للرد عليهم بأدلة عقلية، مستنبطة من القرآن الكريم، لأنه تعالى ليس كمثله شيء. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل، لذكر بعض القضايا العقدية كمثال على ذلك.

أولا: مسألة القضاء والقدر، وأفعال العباد.

إننا قد لا نعدو الصواب، إذا قلنا: إن البحث فى كون الإنسان مجبر أو مسير، موغل فى القدم، ضارب فى جذور الفكر. فجميع الأمم، والمذاهب، والأديان الوضعية، تدخلت بعقلها فى هذه المسألة، وأدلت بدلوها فيها. كذلك أخبرت به الأديان السماوية. فهذه الفكرة تشطر الفكر شطرين. فكما يقول الإمام عبد الحليم محمود –رحمه الله– بحق: "إن مسألة القدر والجبر والاختيار، أو أفعال العباد، قد شغلت الفكر الإنسانى منذ القدم، وإذا أثيرت مسألة القدر فى أى وسط كان، فإنها تقسمه إلى قسمين: يقول أحدهما بالجبر، والآخر بالاختيار."[2]

ولعلنا نلمح جذور فكر الجبر والاختيار قبل أن يسوى آدم –عليه السلام–، وقبل أن يترل إلى الأرض. فعندما أخبر الله تعالى عن جعله آدم –عليه السلام– خليفة فى الأرض، وأمره للملائكة بالسجود له، وإباء إبليس، ولعنه، وطرده من رحمة الله. احتج إبليس، بأنه سيغوى آدم وأبناءه، فقال: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}[3]. فاحتج على ربه فى الإضلال بالقدر، بأن الله هو الذى كتب عليه الغواية.

ومما يدل على أنه كان متحيرا فى المسألة –كما يقول الإمام الفخر– أنه فى آية أخرى قال بالقدر، ومسئوليته عن الفعل. {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

---

١) سورة الشوري. من الأية: ١١.

٢) الإسلام والعقل. د. عبد الحليم محمود. ط. دار المعارف. الطبعة الثانية. بدون تاريخ. ص١٣٥-١٣٦.

٣) سورة الأعراف: ١٦

أَجْمَعِينَ}[1] فنسب الغواية والإضلال إلى نفسه، ولكن آدم –عليه السلام– وكذلك السيدة حواء اعترفا بمسئوليتهما عن خطأهما، واعترفا بذنبهما. {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[2].

وهذا يدل على ظهور هذه المشكلة مع بداية حرية إعمال العقل، ومع إعطاء بعض الخلق القدرة على الفعل أو الترك.

ومشكلة الجبر والاختيار أثيرت فى مختلف الحضارات القديمة، فى الحضارة الفرعونية وفى الفكر اليونانى وفى البيئة العربية.

فى وسط الآراء المختلفة، والأفكار المتباينة، جاء القرآن الكريم، الذى حاول كل فريق أن يستدل بما يوافق مدعاه بآيات منه، وحاول البعض تأويل بعض الآيات لتؤيد مذهبه، مما كان له الأثر فى حركة الفكر والفلسفة فى الإسلام.

القول بالجبر فى المحيط الإسلامى :

دخل القول بالجبر والقدر فى المحيط الإسلامى بعد الفتوحات، ودخول كثير من الطوائف فيه. وكان دخوله تأثيرا وتعليما وتلقينا من الأمم السابقة، حيث إن أول نبتة قالت بالجبر فى المحيط الإسلامى وخاضت فى مسألة القضاء والقدر، غذيت ونمت وترعرعت على يد أصحاب الديانات السابقة.

وإن كان هناك بوادر أقرب عهدا من ذلك، ولكنها لا تعد بداية تأسيس وتقعيد فرقة. وقد سبق بيان ما حدث فى عهد النبى –صلى الله عليه وسلم– وفى عهد الخلفاء الراشدين.

---

١) سورة ص: ٨٢

٢) سورة الأعراف: ٢٣

المذاهب فى أفعال العباد:

أفعال العباد تنقسم إلى قسمين: قسم لا دخل للإنسان فيه، وليس للعبد فيه قدرة ولا إرادة ولا اختيار، وبالتالى لا حساب للعبد عليه. وهذا القسم يكون صفة للعبد لا فعلاً له، كالارتعاش، ونبض القلب، وكونه مولودًا من أبوين معينين، أو فى بلد معين، أو كونه ذكرًا أو أنثىً، أو صحيحًا أو سقيمًا إلى غير ذلك. فلا خلاف فى أن هذه الأشياء مخلوقة لله. "فمثل هذه الأمور، إنما تدخل فى دائرة القضاء، الذى يجب أن يؤمن به الإنسان، دون أن يحتج به على الله. فهو العالم بما ينفع العباد وما يصلحهم، وما يناسب كل واحد منهم، فمنهم من يعبده بالفقر ولو أغناه ما عبده، ومنهم من يعبده بالغنى ولو أفقره ما عبده، وهو الذى لا يسأل عما يفعل والعباد هم المسئولون. ولكل قدر حكمة وغاية، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حكم الله العليا من أقداره."[1]

وقسم للعبد فيه دخل: وهى الأفعال الاختيارية "لأنها هى التى وقع فيها خلاف أهل الضلال، كحركة البطش."[2]

ولا نزاع بين العلماء فى القسم الأول –الأفعال الاضطرارية– وإنما النزاع والخلاف فى النوع الثانى –الأفعال الاختيارية–.

وبعد ذلك نقول: إن الناظر فى الآراء والمذاهب التى تتحدث عن أفعال العباد فى مختلف العصور والأمكنة يجدها تتعدد إلى اتجاهات مختلفة.

ففى أقصى اليمين : وجدت فرقة الجبرية، التى قالت بأن الإنسان مجبر فى فعله، ولا اختيار له فى فعله، ومثله كمثل الرشية فى مهب الريح، يسيرها الهواء كيف شاء.

---

١) أفعال الله. صـ ١٤

٢) حاشية على شرح أم البراهين. محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى. تـ ١٢٣٠هـ ط. الحلبى. الطبعة الأخيرة سنة ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م. صـ ١٦٤

وفى أقصى اليسار: وجدت فرقة القدرية، كرد فعل معاكس وطبيعى فى عالم الفكر –كما فى عالم الطبيعة– فإن لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى القوة، ومضاد له فى الاتجاه. نشأت القدرية كرد فعل للجبرية. وأصحاب هذا الرأى قالوا: بأن الإنسان له حرية، وله إرادة، وله اختيار فى الفعل، والعبد مسئول مسئولية كاملة عن فعله. بل أكثر من ذلك ذهبوا إلى مقولتهم الشهيرة التى تمثل فكرهم بأنه: "لا قدر والأمر أنف". أى أن الأمر يستأنف علمه بالنسبة لله تعالى. فالله تعالى –على رأيهم– لا يعلم الفعل إلا وقت حدوثه!.

وكان بين هذين الرأيين وسائط، مال بعضهم إلى القول بالجبر كالأشاعرة، ومال بعضهم إلى القول بالاختيار كالمعتزلة، ومنهم من توسط بين الأشاعرة والمعتزلة كالماتريدية وإن مالوا أكثر إلى الاعتزال.

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل:

إن الصفات المؤثرة فى الفعل هى العلم، والإرادة، والقدرة. فهل الفعل واقع من الله تعالى أم واقع من العبد؟. وهل الفعل واقع بعلم وإرادة وقدرة الله تعالى، أم واقع بعلم وإرادة وقدرة العبد؟.

يرى الجبرية: أن الفعل واقع بعلم، وإرادة، وقدرة الله تعالى، ولا دخل للعبد فى فعله. فالله تعالى كما قدر أعمال العباد فى علمه، أرادها بمشيئته، وأنفذها بقدرته تعالى وحده، وليس للعباد أى تأثير فى أفعالهم. فالعبد كالريشة فى مهب الريح، فكما أن الريشة لا عقل، ولا حرية، ولا اختيار، ولا قدرة لها على اختيار المكان الذى تنزل فيه، ولا الكيفة التى تنزل عليها. كذلك الإنسان فى هذا الدنيا. فقدرة العباد وإرادتهم مسلوبة، وأن التصرف والاختيار، الذى ربما يجده المرء من نفسه فى بعض أفعاله، من حيث الظاهر فقط. وحقيقة الإنسان أنه مجبر فى فعله.

فالإنسان ليس له من الأمر شيء، وفعل الخير أو الشر، الله تعالى هو الذى يجريه على يديه وهو مجبر فى كل شيء. "وليس له من الأمر شيء. بل الله يجرى على يديه الخير والشر قهرًا عنه، ثم يعطيه فى الآخرة لذةً وألمًا، كما كان يعطيه فى الدنيا مثل ذلك، لا مثوبة ولا عقوبة على شيء، فإنه لا يستحق ثواباً ولا عقاباً، بل تصرفاً فى ملكه كما يشاء"[1].

وفى المقابل: وكرد فعل طبيعى نشأت فرقة القدرية. ورأيهم أن الفعل واقع من العبد والله تعالى لا يعلم الفعل إلا وقت حدوثه. وعلى هذا قالوا: إن الفعل واقع بعلم وإرادة وقدرة العبد فقط. فالإنسان هو الذى يقدر أعمال نفسه بعلمه، ويتوجه إليها بإرادته، وينفذها بقدرته. فالله تعالى لا مدخل له فى الفعل بعلمه، أو إرادته، أو قدرته.

أما الوسائط التى بين الجبرية والقدرية: فإن الأشاعرة مالت إلى رأى الجبرية، والمعتزلة مالت إلى رأى القدرية.

فالأشاعرة: رأوا أن الفعل واقع بعلم، وإرادة، وقدرة الله تعالى، وليس للعبد فيه إلا الكسب، وهو مقارنة فعله لفعل الله تعالى. فالله تعالى هو الفاعلالحقيقى، ولكن عند إحداث العبد للشيء تحدث المقارنة، والفاعل الحقيقى هو الله تعالى.

والمعتزلة: مالت إلى رأى القدرية، فقالت: إن الفعل واقع بعلم الله تعالى، فقد سلموا بالمقدمة الأولى ونازعوا فى المقدمتين الأخريين، وهى الإرادة والقدرة حيث قالوا: "إنه سبحانه قدر الأشياء أزلاً، أى أحاط علمًا بما سيقع منها، وما لا يقع، سواء منها ما كان من أفعاله أو من أفعال العباد، خيرها أو شرها. ثم إنه تعالى يريد أفعال نفسه، ويخلقها على وفق ما علم. أما أفعال العباد، فلا يريد وقوعها أو عدم وقوعها، ولا يخلق شيئًا منها بقدرته، سواء فى ذلك خيرها أو شرها، بل فوض

١) المختار. ١٨٢

الأمر فيها إلى العباد، يفعلون ما يشاءون ويتركون ما يشاءون بقدرتهم المستقلة، وهو يعلم ما سيفعلونه من خير أو شر، كما يعلم الحاكم بأخبار المؤامرات، وتدبير الجنايات قبل وقوعها، من غير أن يكون له يد فى تحريض الجناة عليها، ولا فى تنفيذها. بل ينذرهم بطشه ويحذرهم عقوبته، فإذا ما اقترفوا بعد هذا الإنذار، أخذهم بذنبهم، وإذا اجتنبوا ما نهاهم عنه، أكرمهم وقربهم"[1].

وتوسط الماتريدية بين الأشاعرة والمعتزلة، فرأوا أن الفعل واقع بعلم، وإرادة، وقدرة الله تعالى، ولكن الله تعالى أعطى العبد قدرةً صالحةً للضدين، لفعل الخير أو الشر، والطاعات والمعاصى. والعبد مختار فى توجيه هذه القدرة. فأفعال العباد مخلوقة لله، وهى مكسوبة للعباد، باعتبار الحرية التى أعطاها الله له فى توجيه القدرة إلى أحد الضدين.

أدلة الجبرية من القرآن الكريم

استدل الجبرية على مذهبهم بأدلة نقلية، تدل على عدم فهمهم لآيات القرآن الكريم. منها:

–الآيات القرآنية التى تدل على عموم الخلق، وعلى إثبات الفعل لله تعالى وحده مثل:

{وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ }[2]

–الآيات القرآنية التى تنفى الفعل والإرادة والاختيار عن العبد، وتثبت ذلك لله تعالى وحده، منها قوله تعالى:

{ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ ۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ }[1]

١) المختار. ١٨١–١٨٢

٢) سورة الصافات. الآية: ٩٦

وقوله:

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[2]

–الآيات القرآنية التى تدل على أن الهداية والإضلال للعبد، تكون من الله تعالى ولا دخل للعبد فى ذلك كقوله:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[3]

والمذهب قائم على الاستدلال ببعض الأحاديث، التى تدل على أن العبد مجبر فى فعله، وأن ما يحدث له مقدر فى علم الله تعالى أزلاً، منها:

–(... المعصوم من عصم الله...)[4]

–وحديث سيدنا معاوية فى الدعاء خلف الصلاة:

"فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلى ما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة، فأملى علىّ المغيرة، قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وقال ابن جريج: أخبرنى عبدة أن ورادًا أخبره بهذا، ثم وفدت إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول".[5]

---

١) سورة القصص. الآية: ٦٨

٢) سورة الإنسان. الآية: ٣٠

٣) سورة إبراهيم. الآية: ٤

٤) رواه الإمام الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى. كتاب القدر. باب المعصوم من عصم الله. حديث رقم: ٦٦١١. جـ ١١، صـ ٥١٠

٥) رواه البخارى. كتاب القدر. باب لا مانع لما أعطى الله. حديث رقم: ٦٦/٥. جـ ١١ صـ ٥٢١

–وما ورد أن: "عامر بن وائلة حدّثه أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشقى من شقى فى بطن أمه. والسعيد من وعظ بغيره. فأتى رجلاً من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى، فحدثه بذلك عن قول ابن مسعود، فقال: وكيف يشقى رجل بلا عمل؟. فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟. فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب! أذكر أم أنثى؟. فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب! أجله، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب! أرزقه، فيقضى ربك ما شاء. ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص".[1]

الرد على فرقة الجبرية: لا يخفى فساد هذا الرأى، لأنه معارض لبعض آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وبدهيات العقول.

والذى أدى بأصحاب هذا المذهب أن يقولوا بهذا: أنهم نظروا إلى بعض الآيات التى تقول بالجبر، ولم ينظروا إلى الآيات الأخرى التى تقول بالاختيار، وأن الإنسان له قدرة وإرادة واختيار فى فعله. فمثلهم –وفرقة القدرية أيضاً– كمثل من ينظر للشيء بعين واحدة، ويعطل الأخرى. أو كمثل طير يريد أن يطير بجناح واحد، أو بمعنى أدق، بريشة فى جناح، فلا شك أن طيره لا يكون سليمًا. يقول الإمام عبد الحليم محمود –رحمه الله–: أما الجهمية : فإنها شذوذ فى الرأى، ونشاز فى التفكير، فإنها ليست بنصية، لأنها تقول بالتعطيل، وليست بعقلية لأنها تقول

---

١) رواه مسلم فى صحيحه. عن عبد الله بن مسعود. كتاب القدر. باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله. حديث رقم: ٣-٢٦٤٥. جـ ٨ صـ ٤٤١.

بالجبر. والانسجام العام مفقود بين أجزائها، فهي مذهب مضطرب، متأرجح، ولذلك لم تسد كفرقة، وبقيت فكرة يعمل جهم على نشرها، فلا يكاد يجد صدى لما يقول. ورغم محاولة بعض مؤرخي الملل والنحل، من عدها كفرقة، افترقت إلى فرق، فإنها لم تكد تتجاوز رأس جهم. ويمكن الحديث عنها كحلقة فردية من حلقات التفكير الإسلامي."[1]

ويمكن الرد على فرقة الجبرية من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال العقل.

الرد عليهم من خلال آيات القرآن الكريم: ورد الكثير من آيات القرآن الكريم تثبت أن للعبد قدرة واختياراً على الفعل، من هذه الآيات قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ }[2]. وقوله: {إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا }[3]. وقوله: {وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ }[4].

وأن الله تعالى أخبر أن جزاء الإنسان يكون على العمل: {أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ }[5]. وقوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ

---

١) التفكير الفلسفي. صـ ٨٠.

٢) سورة البقرة. من الآية: ٢٨٦.

٣) سورة الإنسان. الآية:٣.

٤) سورة الكهف. من الآية: ٢٩.

٥) سورة الأحقاف. الآية: ١٤.

تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ }[1]. وقوله: {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ * }[2].

وكذلك الآيات التى تدل على أن للعبد طاقة واستطاعة على الفعل، منها قوله تعالى: {وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ }[3]. وقوله: {فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا }[4]. وقوله: {فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ }[5]. وقوله: {وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ }[6]. وفى قوله: {وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ }[7].

فكل هذه الآيات وغيرها تثبت قدرة واستطاعة للعبد، وأنه مسئول عن عمله. ولعله توجد آية قرآنية ترد على الجبريين وعلى القدريين، فالإنسان ليس مجبرًا خالصًا وليس مختارًا خالصًا، هذه الآية هي: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ }[8]. "ومعناها: وما رميت من حيث الخلق إذ رميت من حيث الكسب، ولكن الله رمى من حيث الخلق والكسب خلقه خلقًا لنفسه، كسبًا لغيره"[9].

---

١) سورة الأحقاف. الآيتان ١٩-٢٠.

٢) سورة النجم. الآيات: ٣٩-٤١.

٣) سورة البقرة. من الآية: ١٨٤.

٤) سورة المجادلة. من الآية: ٤.

٥) سورة التغابن. من الآية: ١٦.

٦) سورة التوبة. من الآية: ٤٢.

٧) سورة الواقعة. الآية: ٢٠.

٨) سورة الأنفال. من الآية: ١٧.

٩) التبصير. صـ ٦٣-٦٤.

ويمكن الرد عليهم أيضاً بأن: (لا حول ولا قوة إلا بالله) مبطل قول الجبرية، وموجب أن لنا حولاً وقوة، ولكن لم يكن لنا ذلك إلا بالله تعالى. ولو كانت ما ذهبت إليه الجهمية لكان القول: لا حول ولا قوة إلا بالله لا معنى له، وكذلك قوله تعالى: {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * }[1]. فنص تعالى على أن لنا مشيئة إلا أنها لاتكون منا، إلا أن يشاء الله كونها.[2]

أن الله تعالى أثبت أن للعبد طاعة وقوة وقدرة، وأثنى على قوم دعوا الله تعالى فقالوا فى دعائهم: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ }.[3] "وقد علمنا أن الطاقة والاستطاعة والقوة فى اللغة العربية ألفاظاً مترادفة، كلها واقع على معنى واحد، وهو صفة ما يمكن منه الفعل باختياره، أو تركه باختياره. ولا شك فى أن هؤلاء القوم الذين دعوا هذا الدعاء، قد كلفوا شيئًا من الطاعات والأعمال، واجتناب المعاصى، فلو لا أن ههنا أشياء لهم بها طاقة لكان هذا الدعاء حمقًا، لأنهم كانوا يصيرون داعين إلى الله تعالى، فى أن لا يكلفهم ما لا طاقة لهم، وهم لا طاقة لهم بشيء من الأشياء، فيصير دعاؤهم فى أن لا يكلفوا ما قد كلفوه، وهذا محال من الكلام. والله تعالى غنى عن أن يثنى على المحال، فيصح بهذا يقينا أن ههنا طاقة موجودة على الأفعال"[4].

أن هذا المذهب يقتضى التسوية بين الطائع والعاصى فى الثواب والعقاب، وهذا مخالف لما أتت به الكتب. قد يعفو الله تعالى عن العاصى ابتداءً ويدخله الجنة بفضله ورحمته، من منطلق أن الله يفعل ما يشاء، لا من منطلق التسوية بينهما، يقول تعالى {أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

١) سورة التكوير. الآيتان: ٢٨-٢٩.

٢) الفصل. جـ٣ صـ ٣٥.

٣) سورة البقرة. من الآية: ٢٨٦.

٤) الفصل. جـ ٣ صـ ٣٦.

كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ }[1]. ويقول: {أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ }[2]. ويقول: {أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }[3]. يقول ابن تيمية: لم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتد ولا ضال، ولا راشد ولا غوى، ولا نبى ولا متبنئ، ولا ولى ولا عدو، ولا مرضى لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق، والمشيئة النافذة، والقدرة الشاملة، والخلق العام، فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعموا عن الفارق بينها"[4].

لو كان الإنسان مجبراً فى فعله لفقدت بعض الحكم فى خلقه كالابتلاء مثلاً، والله تعالى يقول: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }[5]. ويقول: {ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }[6]. ويقول: {إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا }[7]. ولن يتمكن الإنسان من

١) سورة صـ. الآية: ٢٨.

٢) سورة الجاثية. الآية: ٢١.

٣) سورة القلم. الآيتان: ٣٥-٣٦.

٤) الفتاوى. جـ٨ صـ٥٩-٦٠.

٥) سورة الكهف. الآية: ٧.

٦) سورة الملك. من الآية: ٢.

٧) سورة الإنسان. الآية: ٢.

ذلك إلا إذا كان له قدرة على العمل. ولكن مقتضى هذا المذهب أن يعيش الإنسان كالحيوان لا قدرة له ولا إرادة ولا مسئولية ولا تكليف، فيصنع ما يشاء، فلا فرق بين المعصية والطاعة، فالكل مكتوب ومقدر، والكل بخلق الله لا بقدرة العبد. كيف ذلك. وقد قال الله تعالى: {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }[1]؟. فجعل للإنسان قدرة يتقدم بها أو يتأخر، وجعل مصيره مرهونًا بكسبه. فلو كان الأمر كما ذهب الجبرية، لما كان للإنسان أن يتقدم أو يتأخر، ولما كان للمتقدم أجر عن عمله ولا للمتأخر لوم على تأخره، بل يصبح الوجود عبثًا وظلمًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فقال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ }[2].

أدلة القدرية ومناقشتها:

استدلت القدرية على مذهبهم، فى أن الإنسان له حرية وإرادة وقدرة على الفعل، وعلى أنه مسئول عن فعله، بأدلة نقلية، وأخرى عقلية.

الأدلة النقلية: استدلوا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التى تدل على ثبوت الفعل للعبد وحده وعلى محاسبته عليه.

فالله تعالى أثبت الاستطاعة لنعبد على الفعل فقال: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ }[3]. وقال: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ }[4].

---

١) سورة المدثر. الآيتان: ٣٧-٣٨.

٢) سورة الأنبياء. الأية: ١٦. أفعال العباد ص ٢٣-٢٤.

٣) سورة النساء. من الآية: ٢٥.

٤) سورة البقرة. من الآية: ٢١٧

وأثبت الإرادة للعبد فقال –على لسان العبد الصالح الخضر– عليه السلام–: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}[1]. وقال:{ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ }[2]. وقال: {قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا }[3]. وقال: {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا }[4].

وأثبت تعالى المشيئة للعبد فقال: {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }[5]. وقال: {قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا }[6]. وقال: { فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ }[7]. وقال: {ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[8].

فالله تعالى أثبت للعبد الاستطاعة والإرادة والمشيئة. "كما أن الأفعال الأخرى مثل القتل والسرقة، وأيضاً أفعال الشرور كلها تعرف – بداهةً– أن إضافتها إلى العبد، أمر لا مفر منه، إذ من المحال إضافتها إلى الله –عز وجل–."[9]

---

١) سورة الكهف. من الآية:٧٩.

٢) سورة البقرة. من الآية: ٢٣٣.

٣) سورة يوسف. من الآية: ٢٥.

٤) سورة الفرقال. الآية: ٦٢.

٥) سورة التكوير. الآية: ٢٨.

٦) سورة الكهف. من الآية: ٧٧.

٧) سورة النور. من الآية: ٦٢.

٨)سورة فصلت. من الآية: ٤٠.

٩) تاريخ الفرق الإسلامية. صـــ ٨٧.

مناقشة رأى القدرية

رأى القدرية –كما رأينا– مبنى على إنكار القدر، وعلى عدم علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، وأن علمه بها كعلمنا نحن البشر، فكما أننا لا نعلم بالشىء إلا عند حدوثه، أما قبله فلا علم لنا به، فكذلك الله تعالى، وأن الله لا يريد ولا يقدرها بقدرته.

إذن: هذا الرأى مبنى على نفى القدر، والقائلون به ينفون الإيمان بالقضاء والقدر، لأن معنى الإيمان بالقضاء والقدر أن الله علم وأراد وقدّر كل شىء منذ الأزل. وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية. يقول الله تعالى: {ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ * سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ *}[١]. ويقول: {وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ *}[٢]. ويقول: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ}[٣].

---

١) سورة الرعد. الآيات: ٨–١٠.

٢) سورة الأنعام. الآية: ٥٩.

٣) سورة لقمان. الآية: ٣٤.

وكما علم الله تعالى الأشياء منذ الأزل، كذلك خصصها بأحد وجوهها المختلفة بإرادته القديمة: {وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ}[١]. {فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ}[٢].

" فيكون علم الله تعالى وإرادته وقدرته، علة فى وجود الأشياء وسببًا لها، وليس العكس كما يزعم هؤلاء الضالون من أصحاب هذا المذهب، فهم يجعلون علم الله تعالى معلولاً للأشياء وتابعًا لها"[٣].

والإيمان بالقضاء والقدر –كما نعلم– ركن من أركان الإيمان الستة، والإيمان به مما علم من الدين بالضرورة، فيعلمه الخاصة والعامة. والجهل به جهل بركن من أركان الدين، ومنكره منكر لركن من أركان الدين، علم من الدين بالضرورة، وحكمه الخروج من الدين.

أدلة المعتزلة لإثبات مذهبهم

قبل إيراد أدلة المعتزلة نقول: إن منهم من ادعى أن نسبة الفعل إلى العبد لا إلى الرب أمر ضرورى، لا يحتاج إلى دليل، منهم الإمام أبو الحسين البصرى، وقد ادعى أن إنكار كون العبد موجدًا لأفعاله الاختيارية سفسطة ومصادمة للضرورة. واستدلاله قائم على: "أن كل واحد يجد فى نفسه التفرقة بين حركتى المختار والمرتعش، والصاعد باختياره إلى المنارة والهاوى –أى الساقط– منها. ويعلم أن الأولين من هذين القسمين يستندوا إلى دواعيه واختياره، وأنه لو لا تلك الدواعى

---

١) سورة القصص. من الآية: ٦٨.

٢) سورة البروج. الآية: ١٦.

٣) تاريخ الفرق. صـــ ٨٨.

والاختيار لم يصدر عنه شيء منها بخلاف الآخرين، إذ لا مدخل فى شيء منها لإرادته ودواعيه"[1].

ودعوى الضرورة هذه باطلة؛ وذلك لأن الضرورى هو الذى لا خلاف ولا نزاع فيه بين العقلاء، ولا يحتاج فى بيانه إلى دليل. وقد خالفهم فى ذلك كثير من الفرق. بل هم الذين خرجوا على الإجماع فى هذا الكلام.

وكان مما أجاب به صاحب المواقف وشارحه على هذا الكلام قولهما "... إن من كان قبله من الأمة كانوا بين منكرين لإيجاد العبد فعله ومعترفين به مثبتين له بالدليل، فالموافق والمخالف له اتفقوا على نفى الضرورة عن هذا المتنازع فيه. أما نفى المخالف فظاهر، وأما نفى الموافق فلاستدلاله عليه. فكيف يسمع منه نسبة كل العقلاء إلى إنكار الضرورة "[2].

الأدلة من القرآن الكريم

أ. الآيات التى تضيف الفعل إلى العباد مثل قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ}[3]. وقوله: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ}[4]

ب. الآيات التى تمدح المؤمن على إيمانه، وتذم الكافر على كفره، وتعد بالثواب للطائع، والعقاب للعاصى. مثل قوله تعالى: {ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ

---

١) شرح المواقف. جـ٨ ص ١٧٠.

٢) السابق. نفس الموضع

٣) سورة البقرة. من الآية: ٧٩.

٤) سورة النجم. من الآية: ٢٣.

نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ}[1]. وقوله: {إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ}[2].

ج. الآيات التى تدل على أن أفعال الله تعالى منزهة عن أن تكون مثل أفعال المخلوقين من التفاوت والاختلاف والعلم، كقوله تعالى: {مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ}[3]. وقوله: {ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ}[4]. والكفر ليس بحسن فيكون الله تعالى ليس خالقًا له.

د. الآيات التى تدل على ذم العباد على الكفر والمعاصى، كقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[5]. فلو كانوا مجبرين على ذلك، لما أنكر عليهم ووبخهم، لأن الإنكار والتوبيخ مع العجز محال. وقوله: {وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ}[6]. وهذا إنكار فى صورة استفهام. وهذا كمن يحبس عبده ثم يقول له: ما منعك من التصرف فى قضاء حوائجى؟.

---

١) سورة غافر. من الآية: ١٧.

٢) سورة طه. الآية: ١٥.

٣) سورة الملك. من الآية: ٣.

٤) سورة السجدة. من الآية: ٧.

٥) سورة البقرة. الآية: ٢٨.

٦) سورة الكهف. من الآية: ٥٥.

٥. الآيات التي تعلق أفعال العباد على مشيئتهم كقوله تعالى: {وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ}[1]. وقوله: {ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ}[2].

و. الآيات التي تأمر العباد بالعمل وأدائه قبل فوات الأوان. كقوله تعالى: {وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ}[3]. وقوله: {أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ}[4].

ز. الآيات التي تحث على الاستعانة به كقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}[5]. وقوله: {فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ}[6].

ح. الآيات التي تدل على اعتراف الأنبياء بذنوبهم، وإضافتها إلى أنفسهم تثبت لهم الفعل كقوله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا}[7]. وعن يونس عليه السلام: {سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}[8]. وعن موسى عليه السلام {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي}[9].

---

١) سورة الكهف. من الآية: ٢٩.

٢) سورة فصلت. من الآية: ٤٠.

٣) سورة آل عمران. من الآية: ١٣٣.

٤) سورة الأحقاف. من الآية: ٣١.

٥) سورة الفاتحة. الآية: ٥.

٦) سورة النحل. من الآية: ٩٨.

٧) سورة الأعراف. من الآية: ٢٣.

٨) سورة الأنبياء. من الآية: ٨٧.

٩) سورة القصص. من الآية: ١٦.

ط. الآيات التي تدل على اعتراف الكفار والعصاة بأن كفرهم ومعاصيهم كانت منهم، تدل على أنها واقعة بقدرتهم. كقوله تعالى: {وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ}[1].

الرد على هذه الاستدلالات.

يمكن الرد بصفة عامة على جملة استدلالاتهم هذه بأنهم نظروا إلى الآيات التي تدل على مسئولية العبد عن العمل، وأغفلوا الآيات الأخرى التي تدل على أنها من الله تعالى كقوله تعالى: {ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ}[2]. وقوله: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا}[3]. وقوله: {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ}[4]. وقوله: {فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ}[5]. إلى آخر الآيات التي ذكرنا طرفًا منها قبل ذلك.

---

١) سورة سبأ. الآيتان: ٣١-٣٢.

٢) سورة الزمر. من الآية: ٦٢.

٣) سورة الأنعام. من الآية: ١٢٥.

٤) سورة الصافات. الآية: ٩٦.

٥) سورة البروج. الآية: ١٦.

كما أننا لا تنفى مسئولية العبد عن عمله، فإننا وإن نفينا كون العبد موجداً لأفعال نفسه، إلا أن العبد مكتسب لها، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله عند ذكر رأى أهل السنة.

كما أنه يوجد فرق بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضا.

وأيضاً: أن هذه الأمور واقعة بعلم الله تعالى، والعلم صفة كشف لا صفة تأثير وإيجاد. وهذه الآيات التى تدل على نسبة الأفعال إلى العباد لا تستلزم خلقهم لها، ونسبتها إليهم لكونهم محلاً لها وقامت بهم، وهذا ليس دليلاً على الخلق أو الإيجاد منهم على سبيل الاستقلال.

والناظر فى مجموع هذه الآيات التى تضيف الفعل إلى الإنسان يجد أنها لا تثبت أن العبد خالق أفعال نفسه بقدرته المستقلة عن الله تعالى، وما هى إلا حركات يقوم بها الإنسان، والإنسان يستمد قوته وقدرته فيها من الله تعالى، فهو عمل الإنسان ظاهراً فقط من حيث قصده وعزمه.[١]

أهل السنة

ممن توسط بين الجبرية والقدرية فرقة أهل السنة من أشاعرة وماتريدية، حيث ذهبوا إلى أن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله تعالى، ولكنها واقعة من العبد وهو ما يسمونه بالكسب. فالله تعالى فاعل للفعل، والعبد كاسب له. وإذا أضيف الفعل إلى الله تعالى سمى خلقًا، وإذا أضيف إلى العبد سمى كسبًا. فالعبد لا يستقل بالفعل وحده ولكنه فى حاجة إلى عون الله تعالى، وللعبد فيه كسبه بعزمه وقصده وتوجيه قدرته وإرادته إليه، يقول القارى: "صرف العبد قدرته أو إرادته إلى الفعل

١) راجع أفعال الله. صـــ ٣٧.

كسب، وإيجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق، فالله تعالى خالق، والعبد كاسب"[١].

"وبذلك جمع أهل السنة بين التوحيد والعدل، بصورة لم يسبقوا إليها، وكانوا أكثر احترامًا وتقديرًا لآيات الكتاب الكريم، حيث جمعوا بين الآيات التى ظاهرها الجبر، والآيات التى ظاهرها الاختيار."[٢]

هذا الوسط بين الرذيلتين، عبر عنه الإمام السنوسى أصدق تعبير بقوله :"إن هذا المذهب خرج من بين فرث ودم، لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين"[٣].

وأهل السنة بنوا رأيهم هذا على قواعد متينة من الدين.

أولا: الآيات التى تثبت الفعل لله تعالى، وأنه تعالى خالق أفعال العباد.

ثانيا: ما نجده فى أنفسنا من تفرقة ضرورية بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية، والمؤيدة أيضًا بالنصوص الشرعية، والتوفيق بين هذين الأمرين كان بنظرية الكسب.

كما أن قدرته تعالى عامة وشاملة لجميع المقدورات، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ومما هو جدير بالذكر أن القول بالكسب مع مناسبته لآيات القرآن الكريم، لم يبتدعه الإمام الأشعرى أو الإمام الماتريدى، بل قاله قبل ذلك الإمام أبو حنيفة حيث يقول فى الفقه الأكبر: "وصنع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة، والله تعالى خالقها، وهى كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره"[٤].

١) شرح الفقه الأكبر. صـــ ٦٨.

٢) أفعال العباد. صـــ ٤٥.

٣) شرح العقيدة الكبرى. الإمام عبد الله محمد بن يوسف السنوسى. الطبعة الأولى. ١٣٥٤هـ ١٩٣٦م. صـــ ٣٣٣.

٤) شرح الفقه الأكبر. صـــ ٧٨ وما بعدها

ومن الآيات التى استدل بها أهل السنة قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ}[1]. وقوله تعالى: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}[2]. وقوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[3]

الكسب عند الماتريدية

علمنا مما سبق أن الماتريدية قالوا بأن العبد له فى الفعل العزم والتصميم على القيام به، وهذا هو معنى الكسب عندهم.

فالكسب عندهم –كما قال الإمام النسفى فى الاعتماد، وفى الاعتقاد– هو: "صرف القدرة إلى أحد المقدورين، وهو غير مخلوق، لأن جميع ما يتوقف عليه فعل الجوارح من الحركات، وكذا التروك التى هى أفعال النفس من الفعل، والداعية والاختيار، بخلق الله تعالى، لا تأثير لقدرة العبد عليه، وإنما محل قدرته، عزمه عقيب خلق الله تعالى هذه الأمور فى باطنه، عزمًا مصممًا بلا تردد، وتوجيهاً صادقًا للفعل، طالبًا إياه. فإذا أوجد العبد ذلك العزم، خلق الله تعالى له الفعل،

---

١) سورة الرعد. الآية: ١٦.

٢) سورة الصافات. الآيتان: ٩٥-٩٦.

٣) سورة الأنفال. الآية: ١٧.

فيكون منسوبًا إليه من حيث هو حركة، ومنسوبًا إلى العبد من حيث هو زنا ونحوه، من الأصناف التى يكون بها الفعل معصية، وعلى منوال ذلك الطاعة..."[1]

ويفهم من كلام الماتريدية فى معنى الكسب أنه الاختيار أو القصد والتصميم على الفعل، وذلك بعد سلامة الأسباب والآلات التى يحدث بها الفعل، وهذه القدرة صالحة لفعل أحد الضدين: الإيمان أو الكفر، الطاعة أو المعصية.

والفرق بين الكسب عند الأشعرى وعند الماتريدى "أن كسب الأشعرى مع الفعل لا قبله، لأنه نفس تعلق القدرة الحادثة بالمقدور، أما كسب الماتريدى فهو سابق للفعل والقدرة الحادثة معًا، وبمعنى آخر فالعبد عند الماتريدى يستطيع أن يكسب الفعل بالقدرة التى يخلقها الله فيه، ويستطيع ألا يكسبه بهذه القدرة. فمذهب الماتريدية قريب الشبه من مذهب المعتزلة فى الاستطاعة."[2]

لا شك أن كل هذه الاراء والمناقشات والاستدلالات والردود كان لها الأثر الكبير فى الفكر الفلسفى، وحاول كل فريق أن يجد ما يستند إليه من خلال القرآن الكريم حلاً لمشكلة متجذرة فى الفكر الإنسانى.

ثانياً: مسألة الصفات الموهمة للتشبيه.

رأينا فيما سبق، ظهور فرق المشبهة أو المجسمة، ومن رد عليهم وأثبت نفى ذلك عن الله تعالى وهم أهل السنة –ومعهم المعتزلة–، حيث نفوا عن الله تعالى التشبيه بكل صوره، ومن جميع وجوهه، من خلال القرآن الكريم نفسه وذلك كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ}[3] ومن ثم

---

١) الروضة البهية. ص ٧٦. وانظر الصحاف الإلهية. شمس الدين السمرقندى. رسالة دكتوراة. إعداد د. أحمد عبد الرحمن. سنة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م. صـ ٣٩٨.

٢) أفعال الله. صـ ٤٧.

٣) سورة الشورى. من الآية: ١١.

انبرى أهل السنة للرد عليهم أدلة عقلية، مستنبطة من القرآن لأنه تعالى ليس كمثله شيء.

<u>ودليل بطلان الجسمية</u>: أنه تعالى لو كان جسمًا، لكان متحيزًا، وتحيزه باطل لما يلزم عليه من الجهة والمكان والاحياج المحال على الله تعالى، كما يلزم تركبه وحدوثه، لأن هذا شأن الأجسام. كما يلزم اتصافه بصفات الأجسام، إما جميع الصفات، وهذا محال، للجمع بين الضدين. وإما بعض صفات الأجسام، وهذا باطل أيضًا، للزوم الترجيح بلا مرجح، كما يلزم حينئذ أن يتخصص بمقدار معين، وشكل مخصوص فيكون محتاجًا إلى غيره وهو باطل.[1]

كما أولوا الآيات، الوارد فيها ما يوهم التشبيه، تأويلاً يتناسب مع جلال الله تعالى، ولا يتعارض مع اللغة ويقبلها العقل.

ومن الأدلة التى استدلوا بها على نفى الجهة والمكان والتحيز. أنه تعالى لو كان فى مكان أو جهة، للزم قدم المكان أو الجهة، ولا قديم إلا الله تعالى. وأن المتمكن محتاج إلى مكانه، والمكان مستغن عن المتمكن، وحينئذ يلزم إمكان الواجب ووجوب المكان، وهما باطلان. كما أنه لو كان تعالى فى مكان فإما أن يكون فى بعضها، وهو محال، لتساوى الأماكن والأحياز فى أنفسها، فيكون اختصاصه ببعض الأماكن ترجيحًا بلا مرجح. ويلزم احتياجه. وإما أن يكون فى جميع الأحياز، وهو باطل أيضا، لتداخل المتحيزين وهو محال. كما يلزم عليه مخالطته لقاذورات العالم،

---

١) راجع: شرح الموقف الخامس. صـ ٤٢-٤٣ وانظر: أصول الدين للبغدادى ص ٧٦ ولمع الأدلة. لإمام الحرمين. ص ٩٤. والإرشاد. ص ٣٩. ونهاية الأقدام. للشهرستانى صـ ١٠٤. وأساس التقديس. للرازى ص ٤٥. وشرح المقاصد. جـ٢. ص ٤٨. وكذا كتب التفسير المختلفة.

والله تعالى منزه عن ذلك ومتعالى عنه. وأنه لو كان متحيزًا استحال أن يكون عرضًا، وإن كان جوهرًا فهو أيضًا محال؛ لأنه إما أن يكون جوهرًا فردًا وهو أحقر الأشياء، وإما أن يكون جسمًا مركبًا، فيكون محتاجًا والاحتياج عليه محال.[1]

<u>ثالثا: مسألة كلام الله تعالى</u>

مسألة كلام الله تعالى، كان لها أعظم الأثر فى الفكر الفلسفى الإسلامى، فهل كلام الله تعالى قديم أم حادث؟ آراء كثيرة، والكل استدل على رأيه بآيات من القرآن الكريم.

يذهب المشبهة إلى أن القرآن الكريم، وكذا الكتب السماوية قديمة، وغالى بعضهم حتى قالوا بقدم الأصوات والحروف فى نطق القرآن، وقدم الورق، والمداد، والجلد. وكان مستندهم فى هذا بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى فى حق سيدنا موسى عليه السلام {وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ}[2]. وهذا المكتوب هو ما يسمع من التوراة من كلام الله، ومثل قوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ}[3]. والمستجير هذا يسمع كلام الله الذى نقرؤه. ومثل قوله تعالى: {إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ

---

١) راجع: شرح الموقف الخامس. صـ ٣١ وما بعدها. وانظر: التمهيد للباقلانى. ص ١٤ والإرشاد. ص ٣٩. والاقتصاد فى الاعتقاد. للإمام الغزالى. ص ٢٢. ونهاية الأقدام. صـ ١٠٤. وشرح المقاصد. جـ٢ صـ ٤٨.

٢) سورة الأعراف. من الآية: ١٤٥.

٣) سورة التوبة. من الآية: ٦.

إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ *}[١] وهذا يدل بظاهره على أن ما يكتب فى المصحف، وما يسمع من آيات، هو كلام الله القديم، فيكون قديمًا مثله.

وفى مقابل هذا الرأى: رأى المعتزلة، حيث ذهبوا إلى أن القرآن حادث ومخلوق؛ لأنه لا قديم إلا الله سبحانه وتعالى، وكون الله تعالى متكلمًا بمعنى أنه تعالى أوجد الكلام فى بعض الأجسام المخصوصة، كاللوح المحفوظ، وجبريل والرسل - عليهم الصلاة والسلام-[٢]

ورأى المعتزلة هذا، مبنى على رأيهم فى نفى صفات المعانى عن الله تعالى، وحتى لا يلزم الكفر كما كما لزم النصارى، لإثباتهم موجودات ثلاثة قديمة. ولا شك فى بطلان هذا الكلام، لأنه يوجد فرق بين إثبات ذات قديمة لها صفات، وبين ثلاث ذوات قديمة، مستقلة فى الوجود. والذى أدى بالمعتزلة لقولهم هذا ادعاؤهم أن هذا يثبت التوحيد الخالص لله تعالى، وهو الأصل الأول عندهم.[٣]

وقد استدل المعتزلة على حدوث الكلام بآيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا}[٤]. {وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا}[٥]. {وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا}[٦] ويلزم عن الحديث أن يكون حادثا؛ والقرآن منزل لقوله: {تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ

---

١) سورة الواقعة. الآيات: ٧٧-٨٠.

٢) راجع شرح الموقف الخامس صـ ١٤٩ وشرح المقاصد جـ٢ صـ ٧٤.

٣) المعتزلة يسمون أنفسهم أصحاب التوحيد والعدل. ولا يسمى معتزليًا إلا من آمن بأصولهم الخمسة مجتمعة، وهى: التوحيد. والعدل. والأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. والمنزلة بين المنزلتين. والوعد والوعيد.

٤) سورة الزمر. من الآية: ٢٣.

٥) سورة النساء. من الآية: ٨٧.

٦) سورة النساء. من الآية: ١٢٢.

فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ }[١] فالوصف بالتنزيل، وبكونه منزل يشعر بالتغيير من حال إلى حال، وهذا يدل على الحدوث. وكقوله {مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ }[٢] على كون القرآن محدثا، ويفسرها الزمخشرى بقوله: بأن الله يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويحدث لهم الآية بعد الآية، السورة بعد السورة، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون."[٣] وكقوله {إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ}[٤] وكقوله {وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا }.[٥] فما يمكن أن يذهب لا يكون قديمًا، بل لا بد وأن يكون حادثا كما قال الكعبى من المعتزلة.[٦]

وإن كان هذا التأويل لم يعجب أهل السنة، وردوا عليه بأن المراد بالإذهاب: إزالة العلم عن القلوب، وإزالة النقوش الدالة عليه من المصحف، وذلك يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثا.[٧]

فهذه الآيات مع استدلال المعتزلة بها لإثبات رأيهم، فقد فسرها كل فريق بما يوافق رأيه، يقول الرازى فى تفسيره لآيات سورة طه: "قال الأشعرى: إن الله

---

١) سورة السجدة. من الآية: ٢.

٢) سورة الأحزاب. الآية: ٢.

٣) الكشاف. جـ٤. صـ ١٩٩.

٤) سورة طه. الآيتان: ١٢-١٣.

٥) سورة الإسراء. الآية: ٨٦.

٦) التفسير الكبير. جـ١٠. صـ ١٣١.

٧) السابق: نفس الموضع.

تعالى أسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت. وأما المعتزلة: فإنهم أنكروا وجود ذلك الكلام، فقالوا إنه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها، لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله.

وأما أهل السنة من أهل ما وراء النهر –الماتريدية–، فقد أثبتوا الكلام القديم، إلا أنهم زعموا أن الذى سمعه موسى –عليه السلام– صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة، واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث. قالوا إنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث."[١]

وإذا كان هذان الرأيان متعارضان فى المسألة، فقد توسط فيها الأشاعرة، واستدلوا على رأيهم بالقرآن، الكريم حيث ذهبوا إلى أن القرآن قديم وهو المعنى النفسى، وبهذا وافقوا جزءًا من رأى المشبهة والحنابلة، وقالوا بأن الأصوات والحروف حادثة، ووافقوا جزءًا من كلام المعتزلة، وبهذا الرأى للأشاعرة "خلصوا من شنعة القول بحدوث القرآن بصفة عامة، كما هو رأى المعتزلة، أو بقدمه وقدم كل ما يتصل به حتى الجلدة والغلاف كما ذهب إليه المشبهة."[٢]

ومن الآيات التى استدلوا بها لصحة مذهبهم، قوله تعالى {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}[٣]. وقوله {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}[٤]. فالمراد بالذكر والحديث المعبران عن القرآن، والمشار بهما هنا إلى الحدوث، المراد بهما الكلمات والحروف والأصوات، أما الكلام النفسى القديم القائم بذاته تعالى فهو قديم، وأن المراد بالإذهاب –كما سبق– إزالة العلم بالقرآن

١) التفسير الكبير. جـ١٠. صـ ٣٦٤.

٢) القرآن والفلسفة. صـ ٩٢.

٣) سورة الأنبياء. من الآية: ٢.

٤) سورة النساء. من الآية: ٨٧.

من قلوب عارفيه وإزالة النقوش الدالة عليه من المصاحف. وأن المراد بقوله تعالى {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[١]. يخرج منه القرآن بمعنى الكلام النفسى، وذلك لأن الكلام النفسى من صفاته تعالى وصفاته قديمة. وهكذا فى باقى الآيات.

عرض القرآن الكريم لأهم المذاهب والآراء والديانات السابقة ومناقشتها . أمر آخر متعلق بالقرآن الكريم ، وهو أن القرآن الكريم عرض لأهم الأفكار والآراء والمذاهب والديانات التي كانت موجودة قبل الإسلام و ناقش الباطل منها بأدلة إقناعية ، تعتمد على أقيسة منطقية، مما كان له أكبر الأثر في التفكير الفلسفي.

– من ذلك مثلاً : مناقشته لأهل الكتاب عندما ادعى اليهود أن عزيراً ابن الله ، وعندما ادعت النصارى أن المسيح ابن الله ، رد عليهم تعالى بأن هناك من قال مثل قولهم ، فحكم تعالى عليهم بالكفر . ولو كان له ابن لما حكم عليهم بهذا . يقول تعالى : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[٢] .

ويدلك القرآن الكريم علي بشرية عيسى عليه السلام وعدم ألوهيته وكونه رسول من رسل الله تعالى بقوله : {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}[٣] . فكيف يكون إلها ، وكيف تكون مريم أم إله وهما يأكلان الطعام كأي بشر ؟ والطعام دليل على الاحتياج ، والله تعالى منزه عن الاحتياج .

وعندما أعلن اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأنهم أحباؤه ، ناقشهم مناقشة عقلية ، بأن من مقتضيات البنوة والحب ، الحظوة والمكانة الرفيعة ، ولكنهما كانا

١) سورة الأنعام. من الآية: ١٠٢.

(٢) سورة التوبة . الآية : ٣٠ .

(٣) سورة المائدة . من الآية : ٧٥ .

عكس ذلك ، يعذبون بكثرة ذنوبهم. إذن فهم ليسوا بأبنائه ، ولا أحبائه . يقول تعالى : {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير}(١) .

كما ناقشهم تعالى في ادعائهم بأن له ولد . فأخبرهم بأنه تعالى كامل غني غير محتاج إلى ولد . فهو تعالى يملك ما في السماوات وما في الأرض ، ولا دليل لهم على ما نسبوه زوراً وبهتاناً . {قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون}(٢) .

وكيف يكون له ولد ، وكل من في السماوات والأرض صاغراً طائعاً له : {وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً}(٣) .

وناقشهم في ادعائهم بإلهية عيسى ؛ لأنه ولد من غير أب ، فأولى عقلياً أن يكون آدم أيضاً إلهاً ؛ لأنه وجد من غير أب ولا أم . ولم يدع آدم الإلهية ، فأولى بكم ألا تدعوها إليه: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون* الحق من ربك فلا تكن من الممترين}(٤) .

وناقشهم في ادعائهم أن إبراهيم عليه السلام كان من اليهود ، أو كان من النصارى

(١) سورة المائدة . الآية : ١٨ .

(٢) سورة يونس . الآية : ٦٨ .

(٣) سورة مريم . الآيات : ٨٨ – ٩٣ .

(٤) سورة آل عمران . الآيتان . ٥٩ ، ٦٠ .

، وأجاب على افترائهم بأن إبراهيم هو الأسبق على اليهود والنصارى ، فكيف ينسب إليهم ؟ : {يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون}(١) .

ويذهب القرآن الكريم في مناقشتهم إلى أمد بعيد ، وهو أنه لا ينبغي عليهم أن يناقشوا شيئاً ، ولا يتحدثوا في شئ ، حتى يعلموا ما في كتبهم ، ولو عملوا بما في كتبهم ، لعلموا صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ: {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين}(٢) . {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}(٣) .

والقرآن الكريم ناقش أيضا عبدة الكواكب " الصابئة "، وبين لهم أنها أجرام سماوية، لا ثبات لها في نفسها ، وأنها متغيرة مأمورة ، لا إرادة لها ، تابعة لقوة عليا تسخرها كيف شاءت ، ومن كان حاله هكذا ، لا يمكن أن يكون إلهاً . فمن صفات الإله عدم الاحتياج .

والقرآن الكريم بين هذا في أكثر من موضع . لعل أهمها ما بينه سيدنا إبراهيم عليه السلام بياناً عملياً ، وتهكم على معبوداتهم ، وولد فيهم الإجابة الصحيحة . يقول تعالى : {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين *

(١) سورة آل عمران . الآيتان : ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) سورة المائدة . الآية : ٦٨ .

(٣) سورة البقرة . الآية : ١٤٦ .

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}(١)

كما يذكر القرآن الكريم طرفاً من مناقشة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه لبيان فساد معبوداتهم من الأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تزيل عن نفسها الضر . أما الإله الحق المستحق للعبادة ، فهو الذي ينفع ويضر ، ويُلجأ إليه عند الحاجة والشدائد ، فيكشف السوء . {﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ

---

(١) سورة الأنعام . الآيات ٧٥ – ٧٩ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾}(١) . وقوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ }(٢) .

– وكذلك كان منتشراً قبل الإسلام معتقد عبادة الملائكة ، وأنهم بنات الله ، فرد الله تعالى عليهم رداً مقنعاً مفحماً ؛ كيف يحكمون هذا وهم لم يشهدوا خلقهم؟. {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}(٣) . و : {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}(٤) .

وكذلك حاور القرآن الكريم وناقش الدهريين النافين لوجود إله ، وناقش

---

(١) سورة الأنبياء . الآيات : ٥١ – ٦٧ .

(٢) سورة الشعراء . الآيات : ٦٩ – ٨٣ .

(٣) سورة الزخرف . الآية : ١٩ .

(٤) سورة الصافات . الآيات : ١٤٩ – ١٥٣ .

القائلين بالتعدد والنافين للبعث.

ففي رده على الدهريين بين أن قولهم هذا باطل ، لأنهم لا يستندون فيه على حـجة ، بل هم يتبعون الظن والهوى ، وهما لا يغنيان عن الحق شيئا . {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ}[١] .

فإذا كانت فكرتهم في خلق الدهر لهم متهافتة ، باطلة ، فقد تضافرت كـثير من آيات القرآن الكريم ، تثبت أن الله تعالى هو خالقهم ، وخالق جميع ما في الكون {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}[٢] . {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٣] . {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}[٤] .

والقرآن الكريم يتحداهم ، ويبين لهم أن آلهتهم الـتي يعبـدونها مجتمعـة لا تستطيع خلق أي شئ ، مهما دق وصغر ، بل لا يستطيعون استعادة بعض الأشياء التي أخذتها منهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[٥] .

والقرآن الكريم يدعوهم لأن ينظروا إلى بديع ما في السماوات والأرض التي

---

(١) سورة الجاثية . الآية : ٢٤ .

(٢) سورة البقرة . من الآية : ٢٩ .

(٣) سورة البقرة . الآية : ٢١ .

(٤) سورة الطور . الآية : ٣٥ .

(٥) سورة الحج . الآية : ٧٣ .

تدل على عظمة الخالق: {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[١] . {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[٢] . {فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}[٣] ، فكل هذه الدلائل وغيرها تبين أن الله هو الخالق ، وتثير التفكير الفلسفي، الذي يوصل إلي نتائج صحيحة.

وفي مناقشة القرآن الكريم للقائلين بالتعدد ، يرد عليهم رداً مقنعاً منطقيـاً ، بأن هذا الكون بنظامه البديع المحكم ، يشهد على وجود إله واحد ؛ لأنه لو وجـد أكثر من إله لأراد كل إله شيئا غير الآخر ، فتتعدد الإرادات . وهذا مؤذن بفساد الكون: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٤] . {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٥] . {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}[٦] .

وفي مناقشته لمنكري البعث ، بين لهم أنه تعالى هو الذي خلقهـم أول مـرة والقادر على الإيجاد والخلق أول مرة ، قادر على إعادته ثانية . بل العقل يحكم بأن

---

(١) سورة الأعراف . الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة ق . الآيتان : ٦ ، ٧ .

(٣) سورة عبس . الآيات : ٢٤ — ٣٢ .

(٤) سورة الأنبياء . الآية : ٢٢ .

(٥) سورة المؤمنون . الآية : ٩١ .

(٦) سورة الإخلاص .

الإعادة أهون من البدء ، على أنه لا يوجد أهون أو أصعب بالنسبة لله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[١] . {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢] . {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[٣] . {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[٤] .

إلى غير ذلك من موضوعات ناقشها القرآن الكريم ، وحركت العقل إلي التفكير الفلسفي الصحيح الحقيقي، الذي يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى، وصفاته. وإلي الإيمان بالرسل. وإلي الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من سمعيات، لا يتوصل إليها العقل؛ بل معرفتها لا تكون إلا عن طريق الرسل – عليهم السام.

المبحث الرابع

حكم الشرع فى النظر فى الفلسفة و المنطق

إذا كانت الفلسفة هى التفكير العقلى المنظم، الذى يعتمد على أصول وقواعد ثابتة صحيحة، للوصول إلى نتائج يقينة، وإذا كان الإسلام أعلى من شأن العقل، ووضعه فى المكانة السامية العالية، والمراد بالعقل الذى أعلى الإسلام من

(١) سورة الروم . الآية : ١١ .
(٢) سورة الروم . الآية : ٢٧ .
(٣) سورة الأنبياء . الآية : ١٠٤ .
(٤) سورة يس . الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

شأنه هنا هو العقل الذى يعرف حدوده ولا يتعداها، ولا يخوض فيما ليس له فيه من أحكام وأمور سمعية لا يصل إليها.

فإن حكم الشرع فى النظر فى الفلسفة، لا يخلو إما أن يكون حراماً، أو مكروهاً، أو مباحاً، أو مندوباً إليه، أو واجباً[1]. ولا جائز أن يكون حراماً أو مكروهاً، لأن القرآن الكريم أمر بإعمال العقل والفكر والتدبر، بل حث على قضايا الفلسفة، للوصول إلى الخالق تعالى.

إذن: النظر فى الفلسفة يكون على سبيل الوجوب، أو الندب القوى. يقول ابن رشد: "إن كان فعل الفلسفة، ليس شيئا أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها، من جهة دلالتها على الصانع، أعنى من جهة ما هى مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم، كانت المعرفة بالصانع أتم. وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك"[2]

١) الواجب: ما يثاب بفعله ويستحق بتركه العقوبة. راجع التعريفات صـ ٨٣. المباح: ما استوى فيه طرفى الفعل والترك. راجع السابق صـ٦٣. المحرم: ما ثبت النهى فيه بلا عارض، وحكمه الثواب بالترك لله تعالى، والعقاب بالفعل، والكفر بالاستحلال فى المتفق. السابق صـ ٦٦. المندوب: هو الفعل الذى يكون راجحاً على تركه فى نظر الشارع، ويكون تركه جائزاً. السابق. صـ٧٧. المكروه: هو ما ترجح تركه فإن كان إلى الحرام تكون كراهته تحريمية، وإن كان إلى الحل أقرب تكون تنزيهية، ولا يعاقب على فعله. السابق صـ٧٥.

٢ فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. القاضى ابى الوليد محمد بن محمد بن رشد. قدم له وعلق عليه د. البير نصرى نادر. صـ٢٧. ط. دار المشرق. الطبعة الثانية.

وإذا كان الشرع أمرنا بالنظر والفكر، والاعتبار بمخلوقات الله تعالى – وهذا كثير فى آيات القرآن الكريم – من ذلك قوله تعالى: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[1] وهذا الاعتبار – الذى هو الفكر، الذى هو الفلسفة – يكون بالنظر العقلى، وذلك بقياس ما حدث لليهود، من إخراجهم من ديارهم، لما ارتكبوه فى حق المسلمين، فكذلك مصير كل من يسير على نفس النهج.

وقوله تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ}[2] دليل على النظر العقلى والشرعى فيما لا نص فيه، على ما فيه نص، وهذا لا يكون إلا بالعقل.

وقوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[3] بالنظر والاعتبار والقياس على الإيجاد الأول، بجواز الإعادة ثانية. وهذا كثير فى القرآن الكريم.

وإذا كان الأمر بالاعتبار والتفكر مطلوب من كافة الناس، فإن الأنبياء – عليهم السلام – مطالبون بذلك من باب أولى، وهم قدوة لنا. فمثلاً قال تعالى فى حق سيدنا إبراهيم ﵇ بعد مناقشته لعباد الكواكب، والاستدلال على كونها مخلوقة، ولا تستحق العبادة {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[4]

١ سورة الحشر. من الآية: ٢.

٢ – سورة النساء. من الآية: ٥٩.

٣ – سورة يس الأيتان: ٧٨، ٧٩.

٤ – سورة الأنعام الآية: ٨٣.

وإذا كان النظر العقلى واجب بالشرع، فإن الأداة الموصلة إلى هذا النظر واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهى واجب. وأداة التفكير والنظر العقلى هو المنطق، فيكون واجباً كوجوب الفلسفة؛ وذلك لأن الفكر والنظر، أو الاعتبار كما فى التعبير القرآنى، هو استنباط المجهول من المعلوم، سواء أكان تصورات أم تصديقات، واستخراج النتائج من المقدمات.

وإذا كانت الموجودات فى هذا الكون، توصل إلى الاستزادة من معرفة الخالق، فيجب أن نجعل نظرنا فيها؛ وذلك لمعرفة الاقيسة الصحيحة الموصلة إلى المجهولات، ومعرفة ماعداها من الأقيسة الأخرى، وما يلزم معرفته قبل تحصيل القياس. يقول ابن رشد: "إن النظر الذى دعا إليه الشرع، وحث عليه، هو أتم أنواع النظر، بأتم أنواع القياس، وهو المسمى برهانا. وإذا كان الشرع، قد حث على معرفة الله تعالى، وسائر موجوداته بالبرهان. وكان من الأفضل، أو الأمر الضرورى، لمن اراد أن يعلم الله تبارك الله، وسائر الموجودات بالبرهان، أن يتقدم أولاً فيعلم أنواع البراهين، وشروطها، وبما يخالف القياس البرهانى، القياس الجدلى، والقياس الخطابى، والقياس المغالطى"[1]

وإذا كان يجب معرفة القياس لمعرفة أمر من أمور الفقه، وهو من الأمور الفرعية الشرعية، فالأولى استخدام القياس لمعرفة الله تعالى، والنظر فى هذا يكون للاستدلال على وجوده.

١ – فصل المقال. صـ ٢٩

وإذا كان القياس المغالطى أو السوفسطائى[1]، قياس مرفوض لــدى كــل العقول القويمة؛ لأنه لا يؤدى إلى نتائج يقينية، بل يعتمد على التمويــه والتلبيس بالباطل بما يشبه الحق، فإن أنواع الأقيسة الأخرى، أشار إليها القرآن الكريم، وأمر بالعمل بها وبخاصة الأنبياء –عليهم السلام – يقول تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[2] فــ الْحِكْمَةِ: "القياس البرهانى" وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ: القياس الخطابى. "وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ": القياس الجدلى.

وإذا كانت الفلسفة تهدف إلى الغرض الأسمى والأعلى، وهــو معرفــة الله تعالى، فإن فلاسفة الإسلام اهتموا اهتماماً بالغاً، بوضع أسس يسير عليها طالــب ومتعلم الفلسفة؛ بحيث يصل إلى ما يريد، مستعيناً بما أتى به القرآن الكريم. فعنــد الكندى مثلاً، يمكن استنباط هذه الأسس. وأهمها:

---

١) القياس: قول مؤلف من قضايا، يلزم عنه لذاته قول آخر. القياس البرهانى: قياس يثبت صدق نتائجه معتمداً على مقدمات صادقه أو مسلم بها. مثل العالم متغير، وكل متغير حادث = العالم حادث. القياس الجدلى: قياس مقدماته ظنية مثل قولنا: الأكسجين عنصر أساسى للحياة، ومن المحتمل أن يكون القمر محاطاً بطبقة من الأكسجين لمشابهته للأرض = من المحتمل أن توجد الحياة فى القمر. القياس الخطابى: القياس الذى تقوم مقدماته على أساس عاطفى أو حماسى. مثل: بلوغكم الذروة العالية فى الحياة بتعليمكم، وأنتم تردون الذروة العالية فى الحياة = فعليكم بالتعليم. القياس المغالطى: هو القياس الذى يبدأ بمقدمات صادقة، أو تبدو كأنها صادقة، ولكنها تنتهى إلى نتائج غير مقبولة. مثل قولك: إذا رفعت حبة قمح من كوم فهذا لا يزيل الكوم. أرفع حبة ثم حبة، فلا أزيل الكوم، إذن ارفع الحبات كلها إلا حبة واحدة فيبقى الكوم = الكوم حبة قمح واحدة، وهذا القياس كما هو واضح ينتهى إلى هدم المقدمات من خلال النتيجة. (راجع فصل المقال هامش صـ٢٩)

٢) سورة النحل. من الأية: ١٢٥

١- تحديد المراد من الألفاظ تحديداً دقيقاً، حتى يكون الإيراد والنفي على شئ واحد، ولا يستعمل ألفاظاً لا معنى لها ؛ لأن ذلك لا يعطي مطلوبا.

٢- الاعتماد على المقدمات البدهية، والإتيان بها في صورة منهج رياضي، حتى يلزم الخصم ويقيم عليه البرهان، ومنعاً للمغالطة، وقطعاً للمعاند والمكابر.

وعلى هذا لابد من تعلم المنطق والرياضيات، حتى لا يكون عرضة للخطأ.

٣- الاعتماد على المنهج الاستنباطي في قضاياه الفكرية.

٤- إذا كانت الأمور بغاياتها، فلابد من البحث مباشرة ؛ لأجل الوصول إلى الغاية.

٥- تحديد ماهيات وحقيقة الأشياء وعللها ؛ وذلك لمعرفة ما قد يعرض للماهية من عوارض ليست جوهرية فيها.

٦- الاهتمام بكافة العناصر التي يحتاج إليها في البحث. من عنصر حسي تجريبي، وعقلي رياضي، وتاريخي.

٧- الوصول إلى الحق ومعرفته من أي طريق، " فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها ". يقول الكندي في هذا : " وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة لنا، فإنه لا شئ أولى بطالب الحق من الحق. وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائله، ولا بآتٍ به، ولا أحد بخس بالحق، بل كل يشرفه الحق "[1].

٨- شكر من وصل إلى حق، أو أوصل إلينا حقا أو معرفة. فإن الفلسفة والفكر بناء تراكمي ويستحيل أن يأتي إنسان أو أمة بالبناء كاملاً. فكل أمة أو فيلسوف أو مذهب يضع لبنة في البناء، وعلى هذا فلابد من شكر السابقين،

---

١) الرسائل صـ٣٣ .

والتماس العذر فيما قصروا فيه. يقول الكندي: "ومن أوجب الحق ألا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية. فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق، فقد كانوا لنا أنسابا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم"[1].

٩- إحصاء ما قاله السابقون، وتنقيح واستكمال ما بها من نقص أو خلل. يقول الكندي:"... أن نلزم في كتابنا هذا عاداتنا في جميع موضوعاتنا من إحضار ما قال القدماء في ذلك قولاً تاماً، على أقصد سبله وأسهلها سلوكاً على أبناء هذا السبيل، وتتميم ما لم يقولوا فيه قولاً تاماً على مجرى عادة اللسان، وسنة الزمان، وبقدر طاقتنا "[2].

١٠- البعد عن المواطن التي تكون سبباً للالتباس وسوء الفهم، والبعد عن أدعياء العلم والفقه الناصبين العداء لكل فكر صحيح ومسامحتهم. يقول الكندي: "... من الانحصار عن الاتساع في القول المحلل لعقد العويص الملتبسة، توقياً سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر في دهرنا من أهل الغربة عن الحق، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق، لضيق فعلتهم عن أساليب الحق، وقلة معرفتهم بما يستحق ذووا الجلالة في الرأي والاجتهاد في الأنفاع العامة الكل الشاملة لهم، ولدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية، والحاجب بسدف – ظلمة – سجوفه أبصار فكرهم عن الحق، ووضعهم ذوي الفضائل الإنسانية التي قصروا عن نيلها، وكانوا منها في الأطراف الشاسعة بموضع الأعداء الجرية الواترة – أي الجريئة المعتدية التي تؤلم غيرها – ذباً عن كراسيهم التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء الدين ؛ لأن من تجر بشئ

١) السابق صـ٣٢ .

٢) السابق نفسه .

باعه، ومن باع شيئا لم يكن له، فمن تجر بالدين لم يكن له دين، ويحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها، وسماها كفراً "[1].

وفلاسفة الإسلام جميعاً يركزون على نشدان الحق من أى طريق كان، وعدم رفض الفلسفة والنظر فى القياس العقلى، بحجة عدم وجوده فى الصدر الأول، فكثير من العلوم والمصطلحات جاءت بعد الصدر الأول، ولم ينكرها أحد، وكما سبق ذكر كلام الكندى، يقول ابن رشد فى هذا الصدد:" وليس لقائل أن يقول: إن هذا النوع من النظر فى القياس العقلى بدعة؛ إذ لم يكن فى الصدر الأول، فإن النظر أيضاً فى القياس الفقهى وأنواعه، هو شئ استنبط بعد الصدر الأول، وليس يُرى أنه بدعة؛ فكذلك يجب أن نعتقد فى النظر فى القياس العقلى... ويجب علينا أن نبتدئ بالفحص عنه، وأن يستعين فى ذلك المتأخر من المتقدم؛ حتى تكمل المعرفة به، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه، وابتداء، على جميع ما يحتاج إليه من ذلك. كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهى، بل معرفة القياس العقلى أحرى بذلك. وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك، فبينُ أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا، أو غير مشارك فى الملة، فإن الآلة التى تصح بها التذكية – السكين – ليس يعتبر فى صحة التذكية، بل كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة"[2].

وإذا كانت كتب السابقين، تعمل على الوصول إلى معرفة الله تعالى، وإذا كان القرآن يأمرنا ويحثنا على معرفته، فيكون النظر فيها واجب أيضاً بالشرع، ولا

١) الرسائل صـ٣٤ ، ٣٥ .

٢) راجع فصل المقال. صـ٣٠، ٣١ .

يجوز لأحد أن يمنع النظر فى هذه الكتب، ما دام قد جمع بين ذكاء الفطرة، والعدالة الشرعية والخلقية.[١]

ولا شك أنه إذا كان الوصول إلى معرفة الله تعالى، يكون عن طريق الآلة الموصلة إلى ذلك، وإذا كان السابقون قد عرفوا أسس وقواعد هذه الآلات، فينبغي علينا شرعاً الوصول إلى هذه العلوم واقتنائها، وأخذها جميعاً إن كانت صواباً، وعدم أخذ، ووجوب التنبيه على ما ليس بصواب، فإنه لا يوجد أحد ألم بجميع العلوم. ولا شك أن الآلات نعرف بها العالم والموجودات، ونصل عن طريقها إلى معرفة الموجد والخالق تعالى.

ولكون الفلسفة موصلة إلى معرفة الله تعالى، فإن فلاسفة الإسلام اشترطوا شروطاً لطالبها، تتسم كلها بالوسطية والعدل، ولا تخرج عن الإطار العام الذى رسمه الدين الإسلامى الحنيف، وعن قول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}[٢] فالفارابى مثلاً: يرى أنه لابد من توافر شروط لطالب الفلسفة، فإن توفرت فيه فمرحباً به في حقل الفلسفة، فسينتج ويبدع. وإن لم تتوفر فيه هذه الشروط فليحسن عاقبة نفسه. وهذه الشروط عند الفارابي هي :

١– أن يكون جيد الفهم والتصوير للشئ، وللشئ الذاتيّ.

وقد سئل عن الحفظ والفهم أيهما أفضل ؟ فقال : " الفهم أفضل من الحفظ؛ وذلك أن الحفظ فعله يكون في الألفاظ أكبر ذلك في الجزئيات والأشخاص، وهذه الأمور لا تكاد تتناهي، ولا هي تجدي وتغني لا بأشخاصها ولا بأنواعها. والساعي فيما لا يتناهي كباطل السعي.

والفهم فعله في الكليات والقوانين، وهذه أمور محددة متناهية، وواحدة

١) راجع، السابق ، صـ ٣٣ .

٢) سورة البقرة من الآية: ١٤٣.

للجميع، والذي يسبعى في هذه الأمور، ولا يخلو عن جدوى "[١].

٢ – أن يكون حفوظاً وصبوراً على الكد الذي يناله من التعلم.

ولا تعارض بين الشرط الأول والثاني، فالحفظ ليسهل عليه الفهم، والممتنع أن يحفظ ويرد كالببغاء بدون فهم.

٣ – عدم الشره في المأكل والمشرب.

٤ – تهون عليه بالطبع الشهوات، والمال، وماشابه ذلك.

٥ – كبير النفس عما يشين عند الناس.

٦ – ورعا سهل الانقياد للخير والعدل، عسر الانقياد للشر والجور.

٧ – قوي العزيمة على الشئ الصواب.

٨ – قد ربي على نواميس، وعلى عادات تشاكل ما فطر عليه.

٩ – صحيح الاعتقاد لآراء الملة التي نشأ بها.

١٠ – متمسكاً بالأفعال الفاضلة التي في ملته غير مخل بكلها، أو بمعظمها.

١١ – متمسكاً بالفضائل التي هي في المشهور فضائل.

١٢ – غير مخل بالأفعال الجميلة التي هي في المشهور جميلة[٢].

ويبين الفارابي أن على دارس الفلسفة بعد استكمال الشروط السابقة تعلم المنطق ؛ لأنه – كما سبق – يؤدي إلى جودة التمييز، التي تحصل بقوة الذهن، التي تمكن بها من معرفة الصواب من الخطأ.

وبتحقيق الشروط السابقة، وتعلم الفلسفة، والمنطق، يحصل الإنسان على السعادة، ليست فيْ الدنيا فقط، بل وفي الآخرة أيضاً.

١) رسالتان فلسفيتان . الفارابي . تحقيق د/ جعفر آل ياسين صـ٨٣ . طبعة دار المناهل بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م .

٢) تحصيل السعادة صـ٢٤ .

هل تتعارض الفلسفة مع القرآن الكريم؟

إذا كانت الفلسفة تهدف إلى معرفة حقائق الأشياء، وهذا ما يدعو إليه القرآن الكريم، فلا تعارض بينهما. وإن زل إنسان بسبب عدم سيره فى طريق التفلسف إلى نهايته، أو لم يعرف حقيقة الفلسفة كما ينبغى، أو كان هناك نقص فى فطرته، أو عدم وجود مرشد أو هادين حقيقتها، فلا تمنع عمن هو أهل للنظر فيها؛ وذلك لأن الضرر اللاحق من تعلمها، لا لذات الفلسفة، بل لأمر عارض غريب عنها، ولا عبرة فى الحكم على الشئ بالأمر العارض؛ وذلك كمثل منع العطشان من شرب الماء العذب البارد؛ لأن آخر شرق من شربه فمات، فموته هنا عارض، ليس لذات شرب الماء.[1]

من أجل إيضاح عدم التعارض بين القرآن الكريم والفلسفة، أوالدين الإسلامى عموماً والفلسفة، كان لفلاسفة الإسلام، باع طويل فى هذا الأمر.

فإذا نظرنا إلى الكندى مثلاً، نجده أخذ بحظه فى هذه المسألة، فحاول التوفيق بين الدين والفلسفة، وكانت محاولاته موفقة جداً في هذا الصدد ؛ إذ أنه مازج بين معطيات الفكر والفلسفة وبين الدين، ولم يمس ثوابت الدين " كان فيلسوف العرب أول فيلسوف إسلامي حقيقي، انتقل من دور الترجمة والنقل إلى دور الفلسفة الحقيقة ؛ إذ طوع العناصر اليونانية، ومزجها مزجاً بحيث أمكن أن يوفق بينها وبين الإسلام، محتفظاً للإسلام بالأصول الأساسية".[2]

<u>دوافع الكندي للتوفيق بينهما</u> : لقد كانت هناك عدة عوامل دفعت الكندي للقيام بهذه المحاولة، منها ما هو في الدين نفسه. ومنها ما هو في العصر الذي عاش فيه. ومنها ما هو متعلق بحياته وشخصية.

---

١) راجع فصل المقال. صـ ٣٤.

٢) من المشرق إلى المغرب صـ ١٥٣ .

<u>وأهم هذه الدوافع هي :</u>

<u>١ – القرآن الكريم نفسه</u> : فإذا كانت الفلسفة هي إعمال العقل والفكر، فالقرآن الكريم يأمرنا بذلك في كثير من آياته. – وقد سبق الحديث عن هذا –.

<u>٢ – العصر الذي عاش فيه الكندي</u>. العصر الذي عاش فيه فيلسوفنا من حيث التأييد للعلوم العقلية، أو الإنكار لها من الخلفاء، منشطر إلى نصفين، عاش فيهما الكندى. ففي عهد المأمون والمعتصم، حظيت هذه العلوم وأصحابها بالتأييد المطلق، وفي عهد المتوكل قلب لهم ظهر المجن، وآذاهم وعذبهم ومنعهم من إلقاء الدرس، فكان على فيلسوفنا أن يبين لمن يرى هذا الرأي، أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة.

<u>٣ – دفاع الكندي عن نفسه</u>. فهو ممن أوذي وحورب لاشتغاله بهذه العلوم، فكان لابد لتبرئة نفسه، من بيان أن عمله مشروع من قبل الشرع، ولا تعارض بينهما. فكان لابد من ذكره أدلة التوفيق بينهما، والرد على المخالفين للدين من خلال العقل. وبهذا يسلم من الأذى من ناحية، ومن ناحية أخرى يكمل اشتغاله بالعلوم الفلسفية، بعيداً عن مناوئيه وخصومه. وهذا تجلى في كتابته لبعض رسائله مثل : رسالة في الرد على المنانية، وفي الرد على الثنوية، وفي الإحتراس من خدع السوفسطائية، وفي نقض مسائل الملحدين، وفي تثبيت الرسل – عليهم السلام –، وفي التوحيد. إلى غير ذلك.

<u>أسس التوفيق بين الدين والفلسفة عند الكندي.</u>

اعتمد الكندي على أسس في محاولته التوفيق بينهما، وأهم هذه الأسس هي :

<u>١ – الإتحاد في الموضوع</u> : فموضوع الدين والفلسفة واحد. موضوع الفلسفة علم الأشياء بحقائقها وهذا ما جاء به الدين، فهو علم الربوبية، وعلم

الوحدانية، وعلم الفضائل النافعة. وهذه الموضوعات هي موضوعات الدين، وما أتى به الأنبياء – عليهم السلام –. يقول الكندي : " لأن في علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية، وعلم الوحدانية، وعلم الفضيلة، وجملة كل علم نافع، والسبيل إليه والبعد عن كل ضار، والإحتراس منه، **واقتناء هذه جميعاً هو الذي أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه**. فإن الرسل الصادقة – صلوات الله عليهم – إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده، وترك الرذائل المضادة للفضائل في ذواتها وإيثارها"[1].

٢ – الإتحاد في الهدف : فغاية وهدف الدين والفلسفة واحد. هدف الفيلسوف الوصول إلى الحق، والعمل بما وصل إليه. وهي بهذا أعلى الصناعات الإنسانية، وهذا ما أتى به الرسل – عليهم السلام – ودعا إليه الدين. فهدف الفلسفة إذن معاضد ومساند وموافق لما أتى به الدين. يقول الكندي : " إن أعلى الصناعات الإنسانية منزلة، وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة، التي حدها علم الأشياء بحقائقها، بقدر طاقة الإنسان ؛ لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق"[2]. " وأشرف الفلسفة وأعلاها مرتبة الفلسفة الأولى ؛ أعني علم الحق الأول، الذي هو علة كل حق"[3].

٣ – الإتحاد في المصدر : فمصدر الدين ومصدر الفلسفة واحد، وهو الله سبحانه وتعالى فالدين أتى إلينا عن طريق الوحي الصادق من الأنبياء – عليهم السلام – عن الله – عز وجل –، والعقل هو نور من نور الله تعالى، فمصدرهما واحد.

ولا يزعم زاعم رفض الفلسفة ؛ لأنها أتت عن طريق اليونان ؛ فإن اليونان لم

١) الرسائل صـ٣٥.

٢) السابق صـ٢٥.

٣) السابق صـ٣٠.

يمكن الاستغناء بالفلسفة عن الدين، أو عما يأتي به الوحي الصادق عن الله تعالى. وللتأكيد على هذه الجزئية، يصنف الكندي رسالة بعنوان: "رسالة في تثبيت الرسل – عليهم السلام –" يعقد فيها مقارنة بين ما يحصله العقل، وما يأتي به الوحي، فيبين أن الفلسفة تصل بعد الجهد والاكتساب إلى بعض الحق، وربما قصرت عن البعض الآخر. أما النبوة وهي فعل إلهي في نفوس الأنبياء، فإن علومها لدى من تأملها، وأحسن فهمها، تبدو موجزة بالمطلوب، قريبة المسلك إلى العقول والقلوب"[1].

٥ – عدم محاربة الفلسفة باسم الدين. إذا كان هناك اتحاد بين الدين والفلسفة في كثير من الموضوعات وفى الهدف وفى المصدر، ولن تكون الفلسفة بديلاً عن الدين، فلا ينبغي لأحد أن يحارب الفلسفة، ولا أن يتاجر باسم الدين، ولا يحكم على أحد لمعتقده، أو لما يفكر فيه، أو يعادي الفلسفة لمنصب دنيوي. يقول الكندي – بعد بيان البعد عن التأويل المفضي لسوء الفهم – : "..... توقيا سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر في دهرنا من أهل الغربة عن الحق، وأن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق، لضيق فطنهم عن أساليب الحق، وقلة معرفتهم بما يستحق ذووا الجلالة والرأي والاجتهاد في الأنفاع العامة الكل الشاملة لهم، ولدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية، والحاجب بسدف سجوفه أبصار فكرهم عن نور الحق، ووضعهم ذوي الفضائل الإنسانية التي قصروا عن نيلها، وكانوا منها في الأطراف الشاسعة بموضع الأعداء الحربة الواترة، ذباً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء

١) راجع: التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية. د/حسن الشافعي. صـ١٦ طبعة دار الثقافة العربية سنة ١٩٨٨م .

يخترعوها، فإنها موجودة لدى الناس جميعاً ؛ لأنها نتاج التفكير، والفكر قسمة مشتركة بين الناس جميعا. وعلى من يطلب الحق الذي جاء به الأنبياء، أو تتوصل إليه الفلسفة، أن يلتمسها من أي طريق كان، ولا يرفضها لأنها جاءت من أجناس وأناس ليسوا من بني جلدتنا، أو بعيدين عنا، فمعرفة الحق شرف لطالبه. " وينبغي لنا أن لا تستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة لنا ؛ فإنه لا شئ أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائله، ولا بالآتي به، ولا أحد بُخس بالحق، بل كل يشرفه الحق "[1].

فما يأتي به الرسل إذا أراد غيرهم تحصيل بعضه، فإنه يكون بجهد واكتساب، وإعمال عقل، وفي زمان، إلا أن الوصول يكون واحد. " فطرق تحصيل الدين بالنسبة إلى البشر من غير الرسل هو طريق التحصيل والاكتساب، وهو نفس طريق الفلسفة، ودور الشرع إنما يعرض المسائل على العقل ليحصلها بالعقل. والمتتبع لآيات القرآن، وطريقة عرض الرسول للإسلام، ودعوته إليه، إنما هي خطاب إلى العقل، لتقوم المعرفة بالدين على أساس البرهان. فإذا ما انتفى العقل سقط التكليف بالإسلام، وسقطت المطالبة بالمعرفة الدينية، وإذا ما تلقى الإنسان أوامر الشرع بدون برهان مكتفياً بالتقليد أو التلقي، لم يكن إيمانه هو الإيمان الكامل، بل اختلف فيه، هل يكفي أو لا ؟. والأرجح أنه لا يكفي "[2]. فالعقل يدلل على ما يأتي به الرسل، وليس حاكماً عليه.

٤ – الفلسفة لا تكون بديلا عن الدين. إذا كان الدين والفلسفة مصدرهما واحد، وهو الله تعالى، وطريقة الحصول عليهما مختلفة، فلا يعني هذا أنه

١) الرسائل صـ٣٣ .

٢) الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب صـ١٥٧ .

الدين ؛ لأن من تجر بشئ باعه، ومن باع شيئا لم يكن له، فمن تجر بالدين لم يكن له دين، ويحق أن يتعرى من الدين، من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها، وسماها كفرا"[1].

٦ – لا فكاك من التفلسف. وبين الكندي أن من يعادي الفلسفة، ويدلل على عدم الاحتياج إليها، وعلى معارضتها للدين، فمحاولاته هذه ما هي إلا تفلسف وإثبات لصحة التفلسف، فلا ينبغي لأحد أن يعارضها. يقول الكندي : " وذلك أنه باضطرار، يجب على السنة المضادين لها اقتناؤها ؛ وذلك أنهم لا يخلون من أن يقولوا : إن اقتناءها يجب أو لا يجب.

فإن قالوا : إنه يجب. وجب طلبها عليهم.

وإن قالوا : أنها لا تجب، وجب عليهم أن يحضروا علة ذلك، وأن يعطوا على ذلك برهاناً. وإعطاء العلة والبرهان من قنية علم الأشياء بحقائقها، فواجب إذن طلب هذه القنية بألسنتهم، والتمسك بها اضطراراً عليهم "[2].

وإذا نظرنا إلى الفارابى، فإننا نجده يقوم بمحاولات رائعة، للتوفيق بين الآراء المتخالفة، تمثلت فى الجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو – وإن أخفق فى بعضها، إلا أنه قام بالتوفيق بين الدين والفلسفة، وكانت محاولته أيضاً موفقة جداً. وقد اعتمد فى التوفيق على بعض الأسس، التى اعتمد عليها الكندى، وأتى بأدلة أهمها.

الدليل الأول : وحدة المصدر. فالدين والفلسفة يرجعان إلى مصدر واحد. فالدين مرجعه إلى الوحي الذي هو من عند الله تعالى. والفلسفة مرجعها إلى الطبيعة التي هي من إبداع الله. ومصدرهما واحد وهو العقل الفعال.

١) الرسائل صـ٣٤ ، ٣٥ .

٢) السابق صـ٣٥ ، ٣٦ .

ولكن نقول: لدين مصدره الوحى من الله تعالى وهو صواب وحق لا شك فيه، عن طريق رسله – عليهم السلام – الذين أيدهم الله تعالى بالمعجزات. أما العقل فليس معصوماً وبالتالى فقد يصيب وقد يخطئ.[1]

الدليل الثاني: وحدة المعرفة. فمصدر معرفتهما واحد أيضاً. فالدين يستمد المعرفة من الله تعالى عن طريق الوحي الإلهي بواسطة جبريل عليه السلام (العقل الفعال). عن الله تعالى.

والفيلسوف يتلقى العلم بعد ما يصبح عقلاً مستفاداً عن طريق العقل الفعال عن الله تعالى. يقول الفارابي: "... فيكون الله عز وجل يوحى إليه بتوسط العقل الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيلة، فيكون بما يفيض منه عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام. وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون، ومخبراً بما هو الآن من الجزئيات "[2].

وعلى هذا فلا فرق بينهما. فهما بمثابة دليلين على مدلول واحد، ووجهين لحقيقة واحدة.

والخلاف بينهما في نوعية المخاطبين.

كما أن هناك إتفاق بينهما في الموضوعات التي يتناولها كل منهما. يقول الفارابي: "فالملة محاكية للفلسفة عندهم، وهما تشتملان على موضوعات بأعيانها، وكلاهما يعطي المبادئ القصوى للموجودات، فإنما يعطيان علم المبدأ الأول، والسبب الأول للموجودات، ويعطيان الغاية القصوى التي لأجلها كون الإنسان[3].

---

١) الدين مصدره الوحى من الله تعالى وهو صواب وحق لا شك فيه، عن طريق رسله – عليهم السلام – الذين أيدهم الله تعالى بالمعجزات. أما العقل فليس معصوماً وبالتالى فقد يصيب وقد يخطئ.

٢) آراء أهل المدينة الفاضلة صـ ١٠٤ .

٣) تحصيل السعادة . صـ ٤٠ .

وأما قضية التوفيق بين الدين والفلسفة عند ابن رشد، فقد شغلت حيزاً كبيراً من تفكيره وكتاباته، وبرز هذا واضحاً وجلياً فى أشهر كتبه كفصل المقال، والكشف عن مناهج الأدلة، وتهافت التهافت، إلى غير ذلك من كتبه.

ومما قام به فى محاولته للتوفيق فضلاً عما سبق – أن الدين حق، ويدعو إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، ولا يمكن أن يصل النظر البرهانى، إلى مخالفة ما جاء به الدين، لأنها من عند الله تعالى، ولا يمكن للحق أن يضاد ويعارض الحق، بل يوافقه ويعاضده ويسانده، وعلى هذا فإن النظر والاستدلال البرهانى، إما أن يسكت عنه الشرع، أو يقول به.

فإن سكت عنه فلا تعارض بينه وبين الدين، لأنه لو كان هناك تعارض، لنبه عليه الدين، وأشار إليه، وهذا كمثل المسكوت عنه من الأحكام الشرعية، فيستنبطها من هو أهل للإستنباط فيها.

وإن قال به الشرع، فإما أن يوافق ما يستبطه العقل، فلا كلام إذن، لأنه يكون بمثابة وليلين على مدلول واحد. وإن كان مخالفاً لما يصل إليه العقل، وقد علمنا أن الحق لا يعارض الحق طلب تأويل ذلك الشئ. "ومعنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل فى ذلك بعادة لسان العرب، فى التجوز من تسمية الشئ بشبيهه، أو بسببه، أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء، التى عددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى"[1].

فإذا جاز للفقيه أن يستنبط الأحكام، فيما لا نص فيه، وأن ينظر إلى دلالة المجاز فى النص، فالأولى بهذا للفيلسوف الذى يقوم بالدليل البرهانى، وهو قياس يقينى. "ونحن نقطع قطعاً، أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل، على قانون التأويل العربي. وهذه القضية لا يشك فيها

---

١) السابق. صـ ٣٥.

مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن. وما أعظم ازدياد اليقين بها، عند من زاول هذا المعنى، وجربه، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول بل نقول: إنه ما من منطوق به فى الشرع، مخالف بظاهرة لما أدى إليه البرهان؛ إلا إذا اعتبر الشرع، وُتصفحت سائر أجزائه، وجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد. ولهذا اجمع المسلمون، على أنه ليس يجب أن تحمل الفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تُخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل."[1]

ويبين ابن رشد أن السبب فى إيراد الشرع للظواهر المتعارضة، هو تنبيه الراسخين فى العلم إلى التأويل الجامع بين هذه الظواهر. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: {هُوَ الذي أنزل عليكَ الكِتابَ منهُ آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتاب وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ فأمّا الذينَ في قلوبِهِمْ زيغٌ فيتّبِعونَ ما تشابَهَ منهُ ابْتِغاءَ الفِتنةِ وابْتِغاءَ تأويلِهِ وما يَعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والرّاسِخونَ في العِلمِ}[2]

ولا يخفى أن ابن رشد هنا، على مذهب الخلف من المتكلمين، من كون الراسخين فى العلم يعلمون تأويل وحقيقة هذه التشابهات.

وينبه ابن رشد أيضاً إلى أنه لا يجب على أئمة المسلمين أن ينهوا عن كتب البرهان من كان أهلاً لها. وأن الضرر الداخل على الناس منها اقل؛ وذلك لأنه لا يقدم عليها إلا من كانت فطرته فائقة. ولا يحدث لبس أو خطأ فيها، إلا لأن من يقرأ فيها لا يتحصن بالفضيلة العملية، ولا يسير فى قراءته للكتب على ترتيب معين، ولا يتلقى العلم على يد معلم حاذق. كما أن فى منعها صد لما دعا إليه الشرع، ولأن الصد عن هذا النوع من العلوم ظلم لأفضل أصناف الناس، ولأفضل

---

١) فصل المقال. صـ ٣٦.

٢) سورة آل عمران. الآية: ٧ .

أصناف الموجودات، "فإنه على قدر عظم الموجودات، يعظم الجور فى حقه للذى هو الجهل به." ولذلك قال تعالى: {إنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظيمٌ}[1]

<u>عدم تعارض مقصود العلوم الدينية ومقصود الفلسفة</u>. مقصود الدين هو تعلم العلم الحق، والعمل الحق – وهذا يتفق مع تعاريف الفلسفة السابقة؛ لأن الفلسفة تبحث فى كل شئ وفى نصيحة بارميندس لسقراط. "ألا يحتقر الفليسوف شيئاً، ولو بلغ من صآله الشأن مبلغ الشعر والطين"[2]

والعلم الحق هو معرفة الله تعالى، ومعرفة جميع الموجودات على ماهى عليه، وبخاصة الموجودات الشريفة منها، وكذا معرفة السعادة والشقاوة فى الآخرة، وطرق الوصول إليها إلى السعادة، واجتناب الشقاوة؛ وهذا يسمى العلم النظرى. وأما العمل الحق، فيكون بأداء وامتثال الأعمال التى تؤدى إلى السعادة، واجتناب الأعمال التى تؤدى إلى الشقاء، وهذا يسمى العلم العملى.

والشرع يعمل على صحة النفوس، كما يعمل الطبيب على صحة الابدان. وصحة النفوس هذه تسمى تقوى، وهى تطلب بالأفعال الشرعية. يقول تعالى: {يَا أيُّها الذينَ آمنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذينَ من قبلِكُمْ لعلّكُمْ تتّقونَ}[3] ويقول: {لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن ينالُهُ التقوى منكُم}.[4] ويقول: {إنَّ الصّلاةَ تنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ}[5] ويقول: {فَمَن

---

١) فصل المقال. صـ ٤٩ والآية رقم: ١٣ من سورة لقمان.

٢) تمهيد للفلسفة صـ ٥١

٣) سورة البقرة الآية: ١٨٣.

٤) سورة الحج الآية: ٣٧.

٥) سورة العنكبوت من الآية: ٤٥.

فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}[١] ويقول {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}.[٢] وصحة النفوس هذه، هى التى تؤدى إلى السعادة فى الآخرة. وعدم العمل بها يؤدى إلى الشقاء. وهذا أيضاً ما تدعو إليه الفلسفة.

فالعلاقة بين الشريعة والحكمة، أو الدين والفلسفة، كما يرى ابن رشد: "أن الحكمة هى صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة... وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة".[٣]

كما أن الهدف فى الفلسفة وفى الدين واحد فكلاهما يهدف إلى المعرفة الكلية "فإنه إذا كانت الفلسفة تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية فى العاجل والآجل، فإن هذين المطلبين اللذين يشكلان موضوع الفلسفة بقسميها النظرى والعملى، هما كذلك موضوعا الدين، بمعناه الشامل للأصول والفروع".[٤]

وإذا كان الدين يهدف إلى التفكير الصحيح، المنظم، المعتبر، الذى ينتج عنه العلوم المختلفة، فإن العلوم من هذه الناحية، تكون بمثابة بنت الفلسفة، ويكون الدين هو أم الفلسفة. "الفلسفة هى بنت الدين، وأم العلم. من حيث إن الدين هو الذى مهد لها، فى حين أنها هى التى أنتجت العلم"[٥]

---

١) سورة البقرة الآية: ١٩٧.

٢) سورة التوبة الآية: ١٠٣.

٣) فصل المقال، صـ ٥٨.

٤) تمهيد للفلسفة صـ٧٨.

٥) السابق نفس الصفحة.

طريق الفلسفة وطريق الدين:

أهم أوجه المقارنة والمشابهة بين شيئين، يكون فى الهدف، وفى الوسيلة أو الطريق الموصل إلى هذا الهدف، وفى نقطة البداية، مروراً بالوسيلة، وصولاً إلى الهدف.

فهل نقطة الانطلاق فى الدين والفلسفة واحدة أم مختلفة؟

فى الحقيقة إن نقطة الانطلاق فيهما واحدة، وذلك لأن الدين ينطلق من خلال وجود إله حكيم، خالق، مدير للعالم. هو وحده المستحق للعبادة، له الأمر كله، وإليه المرجع والمآل.

ونقطة البداية عند الفيلسوف وجود حقيقة ثابتة، واقعة، مطلقة. ولا يمكن أن يبدأ الفيلسوف من فراغ، وإلا كان كل فكرة وبحثه عبثاً، ويكون شكاً مطلقاً، لا يصل إلى شئ. ووجود هذه الحقيقة، يمثل شرطاً أساسياً للتفلسف. يقول "فشته": "أن يعترف المرء بكل جدية، بأن هناك حقيقة واحدة، هى وحدها الصواب والحق، وكل ماعداها فهو باطل إطلاقاً. وهذه الحقيقة يمكن العثور عليها فعلاً، وتتضح بنفسها مباشرة على أنها حق على الإطلاق".[١]

وقد يبدأ بعض الفلاسفة والمفكرين بالشك المنهجى، للوصول إلى الحقائق كما فعل الإمام الغزالى وديكارت.

وحتى يصل العقل إلى نتائج صحيحة يقينية، يجب عليه أن يتحرر من كل المؤثرات الخارجية التى تؤثر فى وصوله إلى الحقائق كما سبق بيان ذلك.

أما الهدف فى الدين والفلسفة فهو واحد أيضاً.

فالاثنان يهدفان إلى معرفة الله تعالى، وتوحيده، وبيان صفات الجمال والكمال والجلال، التى تليق بذاته تعالى.

---

١) السابق صـ٨٠.

وكما أن إرسال الرسل – عليهم السلام – لإثبات وحدانية الله تعالى، لأن إثبات وجوده ومعرفته، موجود لدى الناس جميعاً وإن كان البعض يحتاج إلى تنبيه، أو إشارة إلى وجوده، فالمشركون مع إشراكهم غيره في عبادتهم له، كانوا يقرون بوجوده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] هذه المعرفة فطرية في كل إنسان ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[3]

وأما الوسيلة والطريقة في الدين وفي الفلسفة فمختلفان.

فوسيلة الدين هي الوحي، الذي ينزله الله تعالى على أنبيائه ورسله لهداية الناس. وأما الفلسفة فوسيلتها للوصول إلى الحقائق هي العقل. ولا يمكن أن يحدث تعارض بينهما – كما سبق بيان ذلك – لأن الوحي من الله تعالى، والعقل من الله تعالى، ولا يمكن أن يتعارض ما هو من عند الله مع ما هو من عند الله. ولكن نظرة الوحي أو الدين نظرة كلية، شاملة، عامة. أما "العقل في الفلسفة قد يرى أحياناً جانباً واحداً من الصورة أو الحقيقة. وهذا يفسر لنا وجود العديد من المذاهب الفلسفية لتفسير الحقيقة، التي هي واحدة".[4]

ويمكن أن نشبه العلاقة بين الدين وبين الفلسفة، أو بين الوحي وبين العقل، بمن لديه بستان فيه جميع أنواع الفواكه الجيدة، المفيدة، وهو أعلم بما فيه من أطايب

١) سورة العنكبوت الآية: ٦١.
٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٣.
٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.
٤) تمهيد للفلسفة. صـ٨١.

الثمار، وأشهاها، وأفضلها. وقد أتى لإنسان بأطيب هذه الثمار، وبين له فوائدها، ومنافعها، ومقاديرها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]. ورجل آخر ذهب إلى غابة، وأخذ يبحث بنفسه، ويفتش، ويصعد الأشجار، حتى أتى ببعض هذه الثمار، بعد جهد وتعب ولأى ومشقة، وبعد أن جرب بنفسه، ولكنه لم يصب كل ما أتى به الأول.

١) سورة الملك الآية: ١٤.

المبحث الخامس

القرآن الكريم وقضايا الفلسفة

القرآن الكريم وضع منهجاً عاماً، شاملاً، صالحاً لكل زمان ومكـــان، ولم يترك شيئاً إلا نبه إليه. يقول تعالى: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}[1] وإذا لم يذكر الحكم مفصلاً فى شىء، فإن القرآن الكريم أشار إلى وجوب الرجوع إلى أهل الخبرة والعلم فى هذا المجال فقال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[2].

وبالتالى فإن القرآن أمرنا بالتفكر والتدبر وإعمال العقل فى كل شىء يقـع تحت إدراكه، ونهانا عن إقحام العقل فى غير مجاله.

وإذا كان القرآن الكريم، وهو كتاب الدين الخاتم، صالح لكل زمان ولكـل مكان، وهو كتاب هداية لجميع البشر؛ لابد وأن يكون قد **احتوى على أصول الفلسفة الصحيحة، التي ينشدها كل فيلسوف.**

ويجب الإشارة إلي أن القرآن الكريم، قد بين الصواب فيما يتعلق بالقضـــايا الفلسفية الرئيسة، وهي: الله . الإنسان. الكون.

إلا أن المسلمين في بداية الإسلام، "لم تكن الغاية مـــن تفكيرهـــم النظـــري، البحث عن الحقيقة في هذه النواحي، كما كان ذلك غايـــة تفكـــير غيرهـــم مـــن المتفلسفين من أبناء الأمم الأخري؛ وذلك لأنهم لم يحسوا الحاجة لشيء من هـــذا، ماداموا قد عرفوا حاجاتهم من هذه الحقائق، بواسطة الوحي الإلهي، الذي كـــانوا قريبي عهد به".[3]

---

١) سورة الأنعام. من الآية: ٣٨ .

٢) سورة النحل. من الآية: ٤٣ .

٣) القرآن والفلسفة. صـــ ١٢.

وهذا يفسر لماذا لم يبحث المسلمون الأوائل، هذه القضايا، كما حدث مـع بعض الأمم الأخرى كاليوناني مثلا. فالقرآن فيه كل مـــا يحتـــاجون إلى معرفتـــه، وبأوضح وأبين ما يمكن أن يصل إليه التفكير الفلسفي. ففلاسفة اليونان، لم يصلوا إلا إلى أقل القليل من الصواب في هذه القضايا.

كما أن المسلمين الأوائل أيضاً صرفوا جهودهم على فهم آيـات القـرآن الكريم، وجمع أحاديث النبي ﷺ وفهمها. ومعرفة واستنباط الحكم المودعة فيهمـا، بما فيه صلاح الناس.

وإذا كان القرآن الكريم ، أمر بالبحث في كل شيء، ممكن البحث فيه ، فإن الفلاسفة يقسمون الفلسفة إلى أقسام ثلاثة رئيســية، وهـــي الفلســفة الإلهيــة، والفلسفة الطبيعية، والفلسفة العملية "الأخلاق"، والقرآن الكريم يأمرنا بالنظر في هذه الأقسام الثلاثة، وفتح العقول والقلوب للاستدلال الصـــحيح، علـــى هـــذه القضايا.

أولاً: الفلسفة الإلهية: وهي معرفة الخالق تعالى، بالنظر في مخلوقاته، لقد بحث الفلاسفة هذا القسم وأجهدوا أنفسهم فيه على مر العصور، فبحثوا في الموجد الأول لهذا الكون، وكيف وجد عنه العالم وذهبوا في هذا مذاهب شـــتى، لا يقبـــل بعضها، بل أكثرها. والقرآن الكريم ، جاء بالقول الشافي، وبين أن ما فيه من دقـــة وإبداع وإحكام ، يشهد بإله واحد. "ومن ذلك نفهم ، طريقة القرآن، في بيان هذه الحقائق الفلسفية. وفي التدليل عليها بما يخاطب الحس والقلب والعقل معاً. ومن ثم يستطيع من يستعمل عقله ، كما ينبغي ، في تدبر هـــذه الآيـــات، والوصـــول إلي الإيمان، بأن هذا العالم، من صنع ذلك الواجد القادر، العليم، الحكيم".[1] ويشـير إليها تعالى في كثير من آياته. منها : {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ

---

١) السابق: صـــ ١٥.

* {أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون}[1]. ومنها : {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء}[2]. ومنها سورة الحج ٤٦/٧٠. سورة العنكبوت ١٩. الرعد ٢-٤. الروم ٨. الحشر ٢٢ – ٢٤. هود: ٧. فصلت: ٩ – ١٢. النازعات: ٢٧-٣٣.

والقرآن الكريم يوضح المنهج الذى يجب أن يسير عليه من يناقش المنكر لوجود الله تعالى، مناقشة عقلية هادئة، بأن يلزمه بالضروريات العقلية التي يسلم بها كل إنسان، وهى أن لكل مخلوق لابد له من خالق. {قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين}[3]. "ولا يقتصر القرآن الكريم على ذلك، بل يورد فى غير ما موضع، وفى غير ما سورة، ذلك الدليل الذى يقول عنه كانت" إنه يذكر مع الاحترام، أعنى الدليل الذى يطلق عليه أحيانا دليل العناية، وأحياناً أخرى دليل النظام، أو القصد، أو التدبير، أو الغائية. وهذا الدليل هو الذى يستند إلى ما نراه فى العالم من تناسق، وتضامن، وانسجام، ومن تدبير محكم، وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة.. وقد استخدم القدماء هذا الدليل، ولا يزال المحدثون يستخدمونه، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله، بل أقواها، وهو فى الوقت نفسه اسهلها بالنسبة للإدراك الإنسانى".[4]

والأدلة المختلفة القرآنية على وجود الله تعالى، "تكاد تتضمن كل ما عداها من أدلة قديمة كانت أو حديثة، برغم اختلاف أساليب التعبير، بحسب اختلاف

١) سورة الطور . الآيتان : ٣٥ ، ٣٦ .

٢) سورة الأعراف . الآية: ١٨٥ .

٣) سورة إبراهيم الآية: ١٠ .

٤) التفكير الفلسفى فى الإسلام صـ٣٨.

البيئة أو الزمن. منها فى صورتها السهلة: "الأثر يدل على المؤثر". وتتضمنها فى صورتها الكلامية: "كل حادث لابد له من محدث" وتتضمنها فى صورتها الفلسفية القديمة. "الممكن والواجب" وتتضمنها فى صورتها الفلسفية الحديثة، سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدان، أو فكرة الكمال، أو غير ذلك".[1]

دليل الحدوث أو دليل الخلق: وهو عمدة استدلال المتكلمين، أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون}[2].

فتغير العالم، وانتقاله من حال إلى حال، يدل على تغيره. وتغيره يدل على حدوثه. وإذا كان حادثاً فلا بد له من محدث، وهو الله تعالى[3]. وهذا الدليل يجده كل إنسان في داخله. وقد استدل به الأعرابى على وجود الله تعالى، عندما وجد بعره فى طريق.

دليل الواجب والممكن[4]: وهو عمدة استدلال الفلاسفة، والذى يعتمد على إمكان وجود الشئ على صورة أخرى غير التى وجد عليها، وبما أنها وجدت على هيئة وشكل معين، فإن ذلك يدل على مخصص خصصها. ولا يمكن أن يكون

١) السابق صـ٣٩.

٢) سورة الأنعام. الآيات: ٧٥-٧٨.

٣) المواقف فى علم الكلام. عضد الدين الأيجى. جـ٢٣. صـ١٢. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة. ط. دار الجيل. بيروت. سنة ١٩٩٧م.

٤) تسمية الدليل بهذا من إنشاء الفلاسفة، ومعناه عبر عنه القرآن الكريم فى كثير من آياته.

المخصص من الممكنات، لأن الممكنات متساوية، فلابد أن يكون من خارج الممكنات، والخارج عن الممكنات هو الواجب، وهو الله تعالى. هذا الدليل أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}[1]. فيمكن لكل الأمور المشار إليها فى الآية الكريمة، أن تكون على غير الصفة التى وجدت عليها. وكذا أيضاً فى قوله تعالى: {قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}[2]. أى: أعطى صورته الخاصة، وشكله المعين، المطابقين للحكمة والمنفعة المنوطة به"[3].

ومن الآيات أيضاً: إبراهيم١٩. الفرقان ٤٥. القصص ٧١ – ٧٣. الملك٣٠. الإنفطار٦–٨.

وأما عن دليل الفطرة: الذى يعتمد على أن فى كل نفس شعور داخلى بوجود إله خالق، مدبر، عالم، مريد، سميع، بصير. القرآن الكريم أشار إلى هذا فى كثير من آياته منها: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}[4]، {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا

---

١) سورة البقرة. الآية: ١٦٤.

٢) سورة طه. الآية: ٥٠.

٣) المواقف جـ٣، صـ١٣

٤) سورة الأعراف. الآية: ١٧٢.

يعلمون}[1]. وهذا ما عبر عنه النبى ﷺ بقوله: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"[2] بل إن هذه الفطرة يشهد بها كل الكائنات، حتى غير العاقلة. يقول تعالى: {ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء}[3]. {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا}[4]. {ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد}[5].

دليل إجابة المضطر أو الدليل النفسى: ويعتمد على أن كل إنسان، فى وقت الشدة والحاجة، يلجأ إلى قوة عليا هو الله تعالى. وهذا يحدث حتى من غير المؤمنين بالله، غير المقرين بوجوده. يقول تعالى: {وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون}[6] {وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون * هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في

---

١) سورة الروم. الآية: ٣٠.

٢) رواه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة. حديث رقم: ١٣٨٥. كتاب الجنائز. باب إذا سلم الصبى فمات، هل يصلى عليه؟.

٣) سورة الحج. الآية: ١٨.

٤) سورة الإسراء. الآية: ٤٤.

٥) سورة سبأ. الآية: ١٠.

٦) سورة يونس. الآية ١٢.

الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[1]

وانظر أيضاً: لقمان٣٢. النحل ٥٣. الإسراء٦٧. يقول الشيخ دراز عن الفيلسوف الفرنسي"هنرى برجسون": "لقد وجدت، وتوجد، جماعات إنسانية، من غير علوم وفنون وفلسفة، ولكنه لم توجد قط، جماعة بغير ديانة"[2]

<u>دليل النظر فى الآفاق والأنفس</u>: من الأدلة الواضحة الظاهرة على وجود الله تعالى، دليل النظر فى الآفاق وفى الأنفس، وهذا الدليل يشهد به كل إنسان فإن الفطرة قد يعرض لها ما يمنع من الوصول للحقيقة، أما النظر فى النفس والكون غير ذلك. فهو من أقوى الأدلة، الأقرب إلى العقول والإقناع. وهذا الدليل واضح فى كل جزء من جزئيات الكون على اتساعه الهائل. فكل شئ يدل على أنه لابد وأن يكون له موجد.

هذا الدليل يشير إليه القرآن الكريم بقوله:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[3]

والآيات القرآنية الدالة على هذا الدليل كثيرة جداً، منها: الأنعام١، ٢. الأعراف ١٨٥. المؤمنون ١٢ – ١٤. النور ٤٥. الروم ٢٠ – ٢٤. الذاريات ٢٠ – ٢١. الطور ٣٥ – ٣٦. الواقعة ٥٧ – ٧٤. الغاشية ١٧ – ٢٠. وغير ذلك كثير لمن تصفح آيات القرآن الكريم.

---

١) سورة يونس. الآيتان: ٢٢-٢٣ .

٢) الدين. محمد عبد الله دراز. صـ ٨٢ .

٣) سورة فصلت. الآية ٥٣.

ولعل الناظر فى هذه الآيات وغيرها، يجد منها دعوة للعقول والقلوب إلى التفكر فى أمور واضحة الدلالة على وجوده تعالى.

وهذا الدليل هو الذى اختاره ورجحه ابن رشد فى الدلالة على وجود الله تعالى. وبين أنه طريق القرآن الكريم. والتى دعا الشرع منها جميع الناس، على اختلاف نظرهم، إلى الإقرار بوجود البارى تعالى.

<u>دليل العناية</u>: هو قريب من دليل الآفاق والأنفس. ويسمى أيضاً دليل الإتقان، والتقدير والإحكام، والعلة الغائية، والنظام، والتدبير، والتناسق، ويعتمد هذا الدليل على النظر فى الكون، من حيث الدقة، والإبداع، والإحكام، والعناية فى كل جزء من جزئياته، بحيث لو اختل شئ، لا يمكن أن يسير سيراً طبيعياً، ولأدى إلى الفساد. والعالم بهذا النظام من أسباب وجوده خدمة الإنسان. وهذا يرجع إلى دليل ابن رشد.

والناظر فى آيات القرآن الكريم، يجد فيه الكثير من الآيات التى تشير إلى عنايته تعالى بالكون، وتنبيه العقل إلى التفكر فيه. من هذه الآيات. {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1] {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[2] {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

---

١) سورة البقرة. الآية ٢٢.

٢) سورة البقرة. الآية ١٦٤.

الميت ومُخرِجُ الميِّت من الحيِّ ذلكم الله فأنى تؤفكون}.[١] {وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيءٍ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجنَّاتٍ من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنَّ في ذلكم لآيات لقومٍ يؤمنون}[٢]. وانظر أيضاً: الرعد ٢-٤. إبراهيم ٣٢- ٣٤. الحجر١٦ - ٢٢. النحل ٥ - ١٧. ٦٥ - ٧٢. ٧٩ - ٨١. الأنبياء ٣٠-٣٣. الحج ٦٣- ٦٥. المؤمنون ١٧- ٢٢. الفرقان ٥٣-٥٤. فاطر ٢٧-٢٨. يس ٣٣-٤٢. الزمر ٢١. النبأ ٦ - ١٦. إلى غير ذلك من آيات.

ولعلنا إذا نظرنا أيضاً إلى ما اكتشفه العلم الحديث، نجد الكثير من الأمور، التى كشفها الله لبعض علمائه، مما يتوافق مع ما أتى به القرآن الكريم. ولنظر مثلاً إلى كتاب "الإسلام يتحدى"، "والإسلام فى عصر العلم" لوحيد الدين خان، ففيهما الكثير والكثير، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة فى الإعجاز العلمى.

ولاشك أن النظر فى هذا الدليل يبطل آراء القائلين بالطبيعة، أو المصادفة، والدهريين، والتطوريين، وكل من ينكر وجود الله تعالى.

ولا شك أن الأدلة المختلفة، والمتنوعة؛ لإثبات قضايا الألوهية، تنبه العقول والقلوب، إلى معرفة الإله الحكيم تعالى، وأنه وحده الخالق لهذا الكون من عدم. إله عالم بكل صغيرة، وبكل كبيرة، خلق العالم ورعاه، وأمده بأسباب الحياة، لا كما يزعم أرسطو.

<u>قضية العلم الإلهي</u>: إذا كان أرسطو يزعم أن الله تعالى ، لا يعلم شيئاً عن أحوال العالم بعد إيجاده، فالله تعالى – من وجهة نظره – يحرك العالم ، كمعشوق

---

١) سورة الأنعام. الآية: ٩٥.

٢) سورة الأنعام. الآية: ٩٩.

ومعقول، وهو معقول لأنه فعل محض، وفعله التعقل، فهو التعقل القائم بذاته. والتعقل بالذات تعقل الأحسن بالذات، أي الخير الأعظم، والتعقل فيه عين المعقول...ومعقوله ذاته، لا شيء أخر، فإنه فعل محض، لا يتأثر عن غيره. فإذا عقل غيره، فقد عقل أقل من ذاته، وانحطت قيمة فعله. فإن من الأشياء ما عدم رؤيته خير من رؤيته. فالله لا يعلم العالم ولا يعني به."[١]

ولا شك أن الأدلة المختلفة والمتنوعة، لإثبات قضايا الألوهية، تنبه العقول والقلوب، إلي معرفة الإله الحكيم تعالى، وأنه وحده الخالق لهذا الكون من عدم. إله عالم بكل صغيرة، وبكل كبيرة، خلق العالم ورعاه، وأمده بأسباب الحياة، لا كما يزعم أرسطو في إلهه، من أنه هو "المحرك الأول"، أوجد العالم وتركه، ولم يعتني به ولم يعلم أحواله، فإن القرآن الكريم يخبرنا بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأنه تعالى عنايته لا تغيب عن شيء من أحوال العالم. يقول تعالى {وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ}[٢]. {وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ}.[٣] {قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ}.[٤] {وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ

---

١) تاريخ الفلسفة اليونانية. أ. يوسف كرم. صـ ٢٣٦، ٢٣٧. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر. سنة. ١٣٥٥هـ. ١٩٣٦م.

٢) سورة الأنعام. الأية: ٣.

٣) سورة الأنعام. الأية: ٥٩.

٤) سورة هود. الأية: ٦٢.

ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ }.[1] والله تعالى يخبر بأنه يحاسب كل إنسان عما عمل يوم القيامة. وهذا يدل على احاطته بكل شيء، وتدوينه لكل ما يحدث من الإنسان. يقول تعالى: {أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ }.[2] {إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ }.[3] وهذه الأدلة المختلفة تعطينا صورة واضحة، وترينا مدى عنايته تعالى الفائقة، بالعالم الذي خلقه، وجعله على نظام وترتيب عجيب بين كل جزئياته، على ما بينته العلوم الحديثة المختلفة، مما يبين أن هذا العالم لم يخلق عبثاً، بل له غاية، وأن له خالقاً صانعاً مبدعاً حكيماً، متصف بكمال القدرة والإرادة والعلم، لا يعزب عنه شيء. وإذا كان الأمر هكذا فلابد من وجود حياة أخري، غير هذه الحياة. يحاسب فيها الإنسان على ما قدم، المحسن على إحسانه والمسيء على إسائته.

وإيراد القرآن الكريم لكثير من الآيات التي تنبه الإنسان وتوجه عقله إلى ما في هذا العالم، وما فيه من دقة، وإبداع ، وإحكام في خلق العوالم المختلفة، إلى وجود إله عالم حكيم، خالق واحد، أتقن كل شيء.

---

١) سورة الملك. الأيتان: ١٣-١٤.

٢) سورة المجادلة. الأية: ٧.

٣) سورة يونس. الأية: ٤.

والقرآن الكريم كما بين علاقة الله تعالى بالإنسان، واهتمامه به، من أن خلق كل ما في السماوات والأرض مسخر لخدمته. كذلك بين أن من الغايات للإنسان، فعله الخيرات، ودفعه إلى ذلك، ومن ألم بشيء من المعصي بين أنه تعالى فتح له باب التوبة والمغفرة، رجاءً في رحمة الله تعالى، فبين تعالى مبدأ الحساب والجزاء: {مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ }.[1] {لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا }.[2] وبين مبدأ الرحمة والكرم والعفو، فهو عفو كريم. فقال: {قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ }.[3] {ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ }.[4] وبين القرآن أن التائب توبة صادقة نصوحة، يبدل تعالى سيئاته حسنات . فيقول: {إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا }.[5]

وحدانية الله تعالى: لقد ركز سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم علي إثبات الوحدانية، فيمكن القول بحق أن القرآن الكريم كتاب التوحيد، فأخص صفاته تعالى صفته الوحدانية وقد ركز عليها القرآن الكريم فى كثير من آياته.

---

١) سورة فصلت. الأية: ٤٦.

٢) سورة النساء. الأيتان: ١٢٣-١٢٤.

٣) سورة الزمر. الأية: ٥٣.

٤) سورة الأنعام. الأية: ١٠٦.

٥) سورة الفرقان. الأية: ٧٠.

فقد عرض نماذج متعددة، وأدلة متنوعة، وحوارات مقنعة، تبين فى مجملها حقيقة توحيده تعالى، وأنه وحده المستحق للتقديس والعبادة. وردت على كل الطوائف المخالفة لوحدانيته تعالى. من يهود، ونصارى، وعبدة كواكب، وعبدة أصنام، وعبدة شيطان، وعبدة ملائكة، وعبدة بشر، إلى غير ذلك.

ولو تأملنا موضعا واحدا من مواضع القرآن الكريم؛ لإثبات الوحدانية، وهو سورة الإخلاص، لوجدنا فيه الكثير من الفوائد. فالإمام الرازى يذكر فى هذه السورة الكريمة، بيان بعض أوجه توحيد الله، فيقول: "فى ترتيبها أنواع من الفوائد:

الفائدة الأولى: أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد، و"ٱلصَّمَدُ" على أنه كريم رحيم؛ لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً. و "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ" على أنه غنى على الإطلاق، ومنزه عن التغيرات، فلا يبخل بشىء أصلاً، ولا يكون جوده لأجل جبر نفع، أو دفع ضراً، بل بمحض الإحسان. وقوله "وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ": إشارة إلى نفى ما لا يجوز عليه من الصفات.

الفائدة الثانية: نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: "أَحَدٌ". ونفى النقص والمغلوبية بلفظ "ٱلصَّمَدُ"، ونفى المعلولية والعلية بـ "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ". ونفى الأضداد والأنداد بقوله: "وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ".

الفائدة الثالثة: قوله أحد يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة، والنصارى فى التثليث، والصابئين فى الأفلاك والنجوم. والآية الثانية: تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله؛ لأنه لو وجد خالق آخر، لما كان الحق مصموداً إليه فى طلب جميع الحاجات. والثالثة: تبطل مذهب اليهود فى عزير، والنصارى فى المسيح، والمشركين فى أن الملائكة بنات الله. والآية الرابعة: تبطل مذهب المشركين؛ حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله وشركاء"[1]. فانظر كيف جمع الله تعالى هذه الفوائد فى هذه

---

[1]) التفسير الكبير جزء ٣٢ صـ ١٧٠.

السورة. فالفائدة الأولى: تدل على إثبات الصفات الواجبة فى حقه تعالى. والفائدة الثانية: تدل على الكمال المطلق، وعدم النقص والاحتياج. والفائدة الثالثة: ترد على كل الفرق المخالفة فى توحيده تعالى. وانظر أيضاً: الحكمة والسر فى تسمية السورة الكريمة بسورة الإخلاص.

ثانيا: الفلسفة الطبيعية

إذا كانت الفلسفة الطبيعية تسعى إلى النظر في المخلوقات لمعرفة قوانين تسخيرها والانتفاع بها. فإن هذا أيضا مما دعا إليه القرآن الكريم في كثير من آياته.

تأمل هذه الآيات : {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾}[1]

وقوله: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2].

ولعلنا بقليل من التأمل فى الآيات السابقة، نجد أن الله تعالى، يخاطب العقول، بحيث لا يسع أى إنسان، إلا أن يسلم بالأدلة اليقينية فيها.

كما أن الملاحظ فيها أيضاً، موافقة الأدلة لكل العقول، والمستويات العلمية، فالأدلة تخاطب العامى، والفيلسوف.

والملاحظ أيضاً: أن الله تعالى استعمل جميع الأدلة، والأقيسة المنطقية، بسهولة، ويسر، وعمق أيضاً. وأنه تعالى يخاطب بهذه الأدلة من يعملون عقولهم، فإنه تعالى "إذا ذكر برهاناً على ربوبيته، ووحدانيته، أتبعه مره بإضافته إلى أولى العقل، ومره إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً على أن بكل قوة من هذه القوى، يمكن إدراك حقيقة منها.[3]

والقرآن الكريم يأمر بالنظر، والاعتبار، وتدبر أحوال الأمم السابقة – وهو ما يعرف بالمنهج التاريخى، – أو المنهج الاستردادى – يقول تعالى: {هَٰذَا بَيَانٌ

١) سورة النحل . الآيات : ٣ – ١٨ .

٢) سورة الجاثية . الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

٣) تفسير آيات العقيدة . د/ عبد العزيز حاجى. جـ١. صـ٧٦. ط. دار الصابونى. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}[1] {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[2]. {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[3].

ونظر الإنسان لعاقبة أمره، وصلاح أموره لآخرته: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[4].

والقرآن الكريم مع دعوته للنظر والفكر، وإعمال العقل، فإنه يدعو أيضاً إلى الموازنة بين من يفكر، ومن لا يفكر، وبالتالى يستحيل المساواة بين الإثنين. {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}[5] {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[6].

الله تعالى فى كثير من آياته يوضح المعانى بضرب الأمثال، ويبين أن ضرب الأمثال لقوم يتفكرون. ويتعظون ويعتبرون، ويعملون عقولهم، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[7].

١) سورة آل عمران. الآية: ١٣٧.

٢) سورة الأنعام. الآية: ١١.

٣) سورة الأعراف. الآية: ٨٦.

٤) سورة الحشر. الآيتان: ١٨-١٩.

٥) سورة الأنعام. من الآية: ٥٠.

٦) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٥-١٧٦.

٧) سورة الحشر. من الآية: ٢١.

وبعد النظر، والتفكر، والتدبر في هذه المجالات، وحتى تكون نتائج التفكير صحيحة، وموصلة إلى نتائج يقنية، فقد دعا القرآن الكريم، إلى وجوب الاعتماد على اليقين، الجازم، المطابق للواقع، الناشئ عن دليل – العلم –، فلا يتبع الهوى، أو الظن، ووصف تعالى المتبعين للظن بعدم الصحة، والكذب فقال: {قُل هَل عِندَكُم مِنْ عِلمٍ فَتُخرِجُوهُ لَنا إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلا تَخرُصُونَ}[1]. {فَإِن لَمْ يَستَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ}[2]. {بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيرِ عِلمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ}[3]. {إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً}[4].

وإذا كانت معرفة الله تعالى تحصل بالوحي وبالعقل إذا استخدم الأدلة اليقينية، ولكن المعرفة لا تجب إلا بالشرع. فقد أشار القرآن الكريم إلى الاستدلال على نبوة الأنبياء – عليهم السلام جميعاً، ونبوة سيدنا محمد ﷺ بصفة خاصة، في كثير من آيات القرآن الكريم. يقول تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ}[5]، {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ}[6]، {وَكَذَلِكَ

---

١) سورة الأنعام. من الآية: ١٤٨.

٢) سورة القصص. الآية: ٥٠.

٣) سورة الروم. الآية: ٢٩.

٤) سورة النجم. من الآية: ٢٨.

٥) سورة النحل. الآية: ٣٦.

٦) سورة فاطر. الآية: ٢٤.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[1].

وإذا كان القرآن الكريم يحكم بوقوع البعث وأن الآخرة دار الجزاء فإن العقل السليم القويم، يحكم بأن هذه الدنيا ليست دار جزاء، بل هناك داراً أخرى، يحاسب فيها المحسن على إحسانه، والمسئ على إساءته، فالقرآن الكريم يشير إلى إمكان البعث بأدلة عقلية منطقية لا يماري فيها أحد. من ذلك قوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[2]. فهذه الآيات المباركة بها أربع أدلة عقلية يقينية.

الأول: القادر على الإيجاد الأول، قادر على الإعادة.

الثاني: القادر على إيجاد الشئ من الضد، قادر على الإحياء بعد الإماتة.

الثالث: القادر على إيجاد الأكبر السماوات والأرض قادر على إيجاد وفعل الأصغر الإحياء بعد الإماتة.

الرابع: إيجاده للأشياء بقوله تعالى "كن". ولا يحتاج إلى آلات أو عدد، أو مواد.

---

١) سورة الشورى. الآية: ٥٢.

٢) سورة يس. الآيات: ٧٨-٨٣.

وقوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ (٧)}[١]، {أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)}[٢] القيامة ٣٦ – ٤٠.

ثالثاً: الفلسفة العملية والاجتماعية

إذا كانت الفلسفة العملية الخلقية والاجتماعية تدعوا إلى الخلق الحسن، ومكارم الأخلاق، فإن القرآن الكريم، أقام بناءً خلقياً رائعاً، كاملاً في كل جزئياته، لسعادة الفرد والمجتمع، ففي القرآن الكريم: "فلسفة إنسانية تتعلق بالإنسان في مختلف حالاته، وأوضاعه، باعتباره فرداً، أو عضواً في أسرة، أو عضوا في مجتمع صغير أو كبير ، أو عضواً في أمة، أو عضواً في جماعة الإنسانية كلها. إن القرآن لم يهمل ناحية من هذه النواحي، فكان بذلك منبعاً لأصول الفلسفة الإنسانية والاجتماعية، على تعدد فروعها وتنوعها، وكان لذلك واضعاً للأسس العامة، التي

١) سورة الحج. الآيات: ٥-٧.

٢) سورة القيامة. الآيات: ٣٦-٤٠.

يقوم عليها المجتمع السليم ن الذي دعا إليه".[١]

انظر كيف خاطب الحق تعالى نبيه ﷺ بما يميزه {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ}[٢].

ومن أهداف بعثة النبي ﷺ استكمال تشييد البناء الخلقي : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٣]. ولا يخفى أخذ وتأثر الفلاسفة من الأنبياء – عليهم السلام –.

والقرآن الكريم تناول الفلسفة الخلقية من جوانبها المختلفة.[٤]

منها ما يتعلق بجملة من الأخلاق كقوله تعالى: {۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٥٣)}[٥].

١) القرآن والفلسفة. صـ ٢٢.

٢) سورة القلم. الآية : ٤ .

٣) السنن الكبرى للبيهقي . عن أبي هريرة . جـ١٠ صـ١٩٢ .

٤) يراجع فى هذا كتاب أخلاقنا د. محمد ربيع محمد جوهرى، فهو كتاب قيم جمع فيه الآيات القرآنية التى تتناول الجانب الخلقى نظرياً و عملياً.

٥) سورة الأنعام. الآيات: ١٥١-١٥٣ .

ومنها ما يبين أن هناك نتائج مترتبة على الفعل الخلقي، أو الامتناع عنه، وكأنها قوانين كونية، لا تنفك أبداً. من ذلك قوله تعالى: {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم}[1]. {إنا لا نضيع أجر المصلحين}[2]. {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[3] {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم}[4]. {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}[5]. وانظر: فاطر٤٣. الأنبياء١٠٥. الطارق٣،٢. هود ٥٢. نوح ١٠- ١٢.

ومن الآيات ما تبين المسئولية الخلقية، سواء أكانت للفرد، كقوله تعالى: {ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه}[6]. {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى}[7]. وانظر: الإسراء ٣٦، فصلت ٤٦. الطور٢١. أم للجماعة كقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب}[8].

---

١) سورة المائدة. من الآية: ١٠.

٢) سورة الأعراف. الآية: ١٧٠.

٣) سورة الرعد. من الآية: ١١.

٤) سورة الأنفال. من الآية: ٥٣.

٥) سورة الأعراف. الآية: ٩٦.

٦) سورة النساء. من الآية: ١١١.

٧) سورة الإسراء. الآية: ١٥.

٨) سورة الأنفال. الآية: ٢٥.

وأن الله تعالى رقيب على الإنسان، ولا يمكن أن يخرج من تحت رقابته.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا}[1]. {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}[2]. وانظر: إبراهيم ٣٨. النحل ١٩. طه ٧. النمل٧٥، ٧٤. غافر١٩. ق١٦/١٨.

ووجوب الاعتدال، وعدم نسيان الجانب المادي، أو تغليب جانب على حساب جانب آخر، يقول تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق}[3]. {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين}[4].

ومن الآيات القرآنية ما تدل على صلاحية الأخلاق لكل زمان ومكان، مع يسرها على المكلف، ووضع قوانين وقواعد عامة كلية لهذا. ومن ذلك قوله تعالى: {إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}[5]. {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}[6] {لا يكلف الله نفسا

---

١) سورة النساء. الآية: ١٠٨.

٢) سورة يونس . الآية: ٦١.

٣) سورة الأعراف. الآيتان: ٣١-٣٢.

٤) سورة القصص. الآية: ٧٧.

٥) سورة البقرة. من الآية: ١٧٣.

٦) سورة البقرة. من الآية: ١٨٥.

إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}[1] وانظر أيضاً: الأنعام ١٥٢. النحل ١١٥. الحج ٨٧. الأحزاب ٥. التغابن ١٦.

وإن الله تعالى يتفضل على المتمسكين بالأخلاق القويمة، بجزيل عطائه فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا يقول تعالى: {ولَوْ أنَّ أهلَ القرى آمَنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السَّماء والأرض}[2]. {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}[3] {قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}[4]. {ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه}[5]، وفى الآخرة {وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم}[6]، {وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة}[7]، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية

١) سورة البقرة. من الآية: ٢٨٦.

٢) سورة الأعراف. من الآية: ٩٦.

٣) سورة النحل. الآية: ٩٧.

٤) سورة الزمر. الآية: ١٠.

٥) سورة الطلاق. الآيتان: ٢-٣.

٦) سورة التوبة. الآية: ٧٢.

٧) سورة الغاشية. الآيات: ٨-١٦.

* جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه}[1].

ومن يخالف هذه القواعد الأخلاقية، له جزاء فى الدنيا، فوق عقوبة الأخرة، يقول تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون}[2] {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}[3].

والقرآن الكريم يبين أن من يطبق الجانب الخلقى، فقد حقق الإيمان. وإن من مقتضيات الإيمان وثمرة له، تحقيق الجانب الخلقي. يقول تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون}[4] {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}[5].

ويبين أن الجزاء المترتب على العمل الخلقى، للرجل والمرأة على السواء. يقول تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا}[6]. {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين

١) سورة البينة. الأيتان: ٧-٨.

٢) سورة البقرة. من الآية: ٨٥.

٣) سورة النحل. الآية: ١١٢.

٤) سورة المائدة. الآية: ٨.

٥) سورة التوبة. الآية: ١١٩.

٦) سورة النساء. من الآية: ١٢٥.

وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[1]. وقد سبق بيان أن العبادات فى الإسلام، لتقوية الجانب الخلقى، وزيادة مراقبة العبد لله تعالى.

وإذا أصيب الإنسان أو ناله أذى من غيره فإن القرآن الكريم يحث على الصفح والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة، وإذا ردها فيكون بمثلها من غير تجاوز ولا اعتداء. فالحث على الصفح والمغفرة والعفو يقول تعالى: { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[2].

والرد بالمثل يكون مع من لا يزيدهم العفو إلا إيغالا في الظلم والجور والأذى والعدوان. فالواجب على الإنسان في هذه الحالة أن ينتصر لنفسه : {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ }[3] ولكن لابد الاشارة إلى أمر غاية في الأهمية وهو "إن لنا أن نقدر أن ما ندب إليه القرآن من الصفح والعفو عن المسيء إنما هو في حقوق الأفراد، حيث يعتدى بعضهم على بعض فيناله بشيء من الأذى – أما حين تعتدي أمة من الأمم علينا معاشر المؤمنين، فإنه من الذلّ والكفر بما وعدنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم من النصر على الظالمين، أن نجنح إلى الصفح والعفو، بل لابد من العقاب والجهاد في سبيل

١) سورة الأحزاب. الآية ٣٥.

٢) سورة النور. الأية: ٢٢.

٣) سورة الشورى. الآيات: ٣٩-٤١.

الإنتصاف لأنفسنا وأمتنا، مع الإيمان بنصر الله الذي وعد عباده المؤمنين المجاهدين. ومن أوفي بعهده من الله العزيز الحكيم.[1]

ويركز القرآن الكريم على كيفية إيجاد الخلق فى المرء، وتقويته، وحضوره دائماً. ومن الطرق المؤدية إلى ذلك: حسن الدعوة إليه، وعدم التنفير منه، والنصيحة دائماً، فهو يدخل فى عموم الدعوة إلى الخير بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[2]، وانظر: النساء ٥٨/ ٦٣/ ٦٦.

والنصيحة والتذكير دائماً بالجانب الخلقى {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ }[3]، وإيراد بعض قصص الأمم السابقة، ليبين جزاء الخلق

١) القرآن والفلسفة. صـــ ٢٧.

٢) سورة النحل. من الآية ١٢٥.

٣) سورة لقمان. الآيات ١٣-١٩ .

الحسن من ذلك مثلاً: {۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾}[1].

ومن أهم أساليب الدعوة إلى الخلق، القدوة الحسنة، لذلك أخبر تعالى عن نبيه محمد ﷺ بأنه القدوة لنا، الذى يجب أن نترسم خطاه، ونسير على هديه ونهجه. يقول تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا}[2]. وعندما سئلت السيدة عائشة عن خلق النبى ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن"[3].

١) سورة الكهف. الآيات ٣٢-٤٣.

٢) سورة الأحزاب. الآية ٢١.

٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده. عن السيدة عائشة. حديث رقم: ٢٤٦٤٥ جـ٦ صـ٩١.
قال المحقق: الارناؤوط: صحيح. ط. مؤسسة قرطبة. القاهرة.

والله سبحانه وتعالى تجلت حكمته في جعله الإنسان مدني واجتماعي بطبعه، فالإنسان لايمكن أن يعيش منفرداً وحده ولكنه لابد وأن يعيش في جماعة من بني جنسه، ولا شك أن هذا يحتاج إلى تنظيم هذه العلاقة ، التي تحدد حقوق وواجبات كل إنسان في هذا الإجتماع. والقرآن الكريم وافر في ذكر هذه العلاقة، مما هو ليس موجوداً في أي فكر أو فلسفة سابقة على مر العصور. ومن ملامح هذه العلاقة التي وضع أسسها القرآن الكيم:

١) عبادة الإله سبحانه وتعالى وحده لكي تكون هناك مساواة في العلاقة بين الناس وواضع هذا القانون، ولا شك أن هذا ملزم للجميع.

٢) حب الله تعالى ورسوله أكثر من أي شيء، ولا شك أن هذا يمنع من التكالب على الفانيات.

٣) المساواة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات العامة؛ وذلك لأن الناس متساوون كأسنان المشط، مهما كان جنسياتهم وأديانهم ولا فرق في هذه الناحية إلا بالإيمان والتقوي والعمل الصالح. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1]. ولعل في التطبيق العملي لهذا المبدأ ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ولا شك أن هذا يعقد قانون الحرية الفردية والمساواة في الحقوق العامة بين جميع الناس.

٤) وضع التشريعات التي تنظم حياة الناس ومنها:

أ. الإنفاق على من يجب الإنفاق عليهم، من رزق الله تعالى الذي جعل الناس مستخلفين فيه. {ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[2].

١) سورة الحجرات. الأية: ١٣.

٢) سورة الحديد. الأية: ٧.

ب. التصدق على الفقراء والمساكين والمحتاجين بالأوجه المختلفة من إخراج الزكاة والصدقات والاعانة. {وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ}.[1] {لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ}.[2] {خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.[3]

ج. وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق التي تكون بين الأفراد والجماعات. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ}.[4] {وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ}.[5]

---

١) سورة الذاريات. الأية: ١٩.

٢) سورة البقرة. الأية: ١٧٧.

٣) سورة التوبة. الأية: ١٠٣.

٤) سورة المائدة. الأية: ١.

٥) سورة النحل. الأية: ٩١.

{وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا}.[1] ولا يقتصر هذا على ما بين المسلمين فقد، وإنما يكون أيضاً بينهم و بين غيرهم. {إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ}.[2]

د. وجوب الوفاء بالدين وكتابته ضمانا للحقوق. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ...}.[3]

هـ. وجوب العمل والتزام العدل والأمانة حتى مع الوالدين والأقربين. {وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ}.[4] {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ}.[5] وحتى مع من بيننا وبينهم عداوة وبغضاء. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ

---

١) سورة الإسراء الأية: ٣٤

٢) سورة التوبة. الأية: ٤.

٣) سورة البقرة. الأية: ١٨٢.

٤) سورة الأنعام. الأية : ١٥٢.

٥) سورة النساء. الأية: ١٣٥.

لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }.[١] ومع الأعداء {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * ... }.[٢] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }.[٣]

---

١) سورة المائدة. الأية: ٨.

٢ سورة النساء. الأية: ١٠٥-١١٣.

٣ سورة الحجرات. الأية: ١٣.

فهرس المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم.

- أخلاقنا. د. محمد ربيع محمد جوهري. الطبعة الثانية. سنة ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.
- آراء أهل المدينة الفاضلة. الفارابي. تحقيق: د. البير نصري نادر . ط. دار المشرق. الطبعة الثانية.
- الإسلام والعقل. د. عبد الحليم محمود. ط. دار المعارف . الطبعة الثانية.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. إمام الحرمين. تحقيق: د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد. ط. الخانجي. سنة ١٩٥٠ م.
- أصول الدين. الإمام: أبو منصور البغدادي. ط. تركيا. سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.
- أفعال الله وأفعال العباد. د. سعد الدين السيد صالح. ط. دار الطباعة المحمدية. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- تاريخ دمشق. ابن عساكر.
- تاريخ الفرق. د. محمود محمد مزروعة. ط. دار المنار. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٠هـ/١٩٩١م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية. أ. يوسف كرم. ط. دار التأليف والترجمة والنشر. سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
- تاريخ المذاهب الفلسفية. سانتلانا.
- تحصيل السعادة. أبو نصر الفارابي. ط. سنة. ١٣٤٥هـ.
- تفسير ابن كثير. الإمام: إسماعيل بن كثير. تحقيق: سامي محمد علي سلامي. ط. دار طيبة للنشر. الطبعة الثانية. سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٠م.

– تفسير آيات العقيدة. د. عبد العزيز حاجي. ط. دار الصابوني . الطبعة الولى. سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

– تفسير البيضاوي. ط. تركيا. سنة. ١٣٢٨هـ.

– تفسير الطبري.

– التفسير الكبير. الإمام فخر الدين الرازي. ط. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

– تفسير الكشاف. الزمخشري. ط. دار الكتب العلمية.

– التفكير فريضة إسلامية. أ. عباس محمود العقاد. ط. مكتبة نهضة مصر.

– تمهيد للفلسفة. د. محمود حمدي زقزوق. ط. دار المعارف. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٩٢م.

– التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع. أبو حسن محمد الملطي. تحقيق: محمد زاهد الكوثري. ط. المكتبة الأزهرية للتراث. الطبعة الثانية. سنة ١٩٧٧م.

– التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية. د. حسن الشافعي. ط. دار الثقافة العربية. سنة ١٩٨٨م.

– الجامع لأحكام القرآن الكريم. الإمام القرطبي. ط. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

– حاشية على شرح أم البرهين. محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي. ط. دار الحلبي. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

– درء تعارض العقل والنقل. ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط. دار الكنوز الأدبية. الرياض.

– رسالة التوحيد . الإمام الشيخ : محمد عبده. تحقيق: د. محمد عمارة . ط. دار الشروق . الطبعة الأولى. سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

– صحيح ابن حبان . محمد بن حبان البست . تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٩٩٣م.

– صحيح البخاري. بحاشية السندي . ط. دار إحيا الكتب العربية. بدون.

– صحيح مسلم بشرح النووي. حققه وفهرسه : عصام الصبابطي. وآخرون. ط. دار الحديث. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

– فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. القاضي: ابن رشد. قدم له وعلق عليه: البير نصري نادر. ط. دار المشرق. الطبعة الثانية.

– الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب. د. عبد المعطي محمد بيومي. سنة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

– القرآن والفلسفة. د. محمد يوسف موسى. ط. دار المعارف. الطبعة الثانية. بدون.

– لسان العرب. جمال الدين بن منظور. ط. دار المعارف. بدون.

– مباحث في علوم القرآن. مناع القطان. ط. مكتبة وهبه. القاهرة. الطبعة الحادية عشرة.

– مجموع الفتاوى. ابن تيمية.

– المختار من كنوز السنة . د. محمد عبد الله دراز. ط. دار الأنصار. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

– المسامرة للكمال بن أبي شريف. شرح المسايرة للكمال بن الهمام. ط. المطبعة الكبرى الأميرية. بولاق. الطبعة الأولى. سنة ١٣١٧هـ.

– مسند الإمام أحمد. ط. مؤسسة قرطبة. القاهرة.

– المعجم الكبير. الطبراني. تحقيق:حمدي عبد المجيد السلفي. الطبعة الثانية. سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

– رسالة حدود الأشياء ورسومها. الكندي . ضمن رسائل الكندي الفلسفية. تحقيق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط. دار الفكر العربي. الطبعة الثانية.

– رسالتان فلسفيتان . الفارابي. تحقيق: د. جعفر ال ياسين . ط. دار المناهل. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٩٨٧م.

– رسالة ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة. الفارابي. ط. المكتبة سلفية.

– الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية. حسن بن عبد المحسن بن أبي عذبة. ط. دار سبيل الرشاد. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

– سنن أبي داود. الإمام : أبو داود السجستاني. تعليق الشيخ: أحمد سعد علي. ط. مصطفى البابي الحلبي. الطبعة الأولى. سنة ١٩٥٢م.

– سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. ط. دار إحياء الكتب العربية.

– سنن الترمذي. تحقيق: الشيخ إبراهيم عطوة. ط. مكتبة دار الحديث.

– شرح العقيدة الكبرى. الإمام عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. الطبعة الأولى. سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م.

– شرح الفقه الأكبر. ملا علي القاري . ط. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م.

– شرح مقاصد الطالبين في علم أصول الدين. سعد الدين التفتازاني. ط. دار الطبعة العامرة.

– شرح موقف الخامس. السيد الشريف الجرجاني . تحقيق: د. أحمد المهدي. ط. مكتبة الأزهر. بدون.

– المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. تحقيق: مجمع اللغة العربية.

– الموافقات . الإمام الشاطبي. ط. دار المعرفة. بيروت.

– المواقف في علم الكلام. الإمام : الإيجي. ط. مكتبة المتنبي. القاهرة.

– المنقذ من الضلال. الإمام: أبو حامد الغزالي. تحقيق: د. جميل صليبا. وكامل عياد. ط. دار الأندلوس. بيروت.

– نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الماتريدية والأشعرية من العقائد. الشيخ: عبد الرحيم بن علي المشهور بشيخ زادة. رسالة ماجستير. تحقيق: جميل إبراهيم السيد. سنة ١٩٩٤.

– نهاية الأقدام. الإمام محمد عبد الكريم الشهرستاني. تحقيق: الفرر جيوم. ط. مكتبة زهران. القاهرة.

فهرس الموضوعات